
الله
رسول
محمد
الرومنسية:
سلاح بيد الشيطان
هارون يحيى

في المجتمعات التي ضعفت فيها روح التدين تنقلب المعايير فيغدو الحق باطلا والباطل حقا. تفرح هذه المجتمعات وتزدهي بعقيدتها الضالة البعيدة عن هدي الله وتزدري الدين الحق وتحط من قدره. ولا غرو، فالخلط بين الحق والباطل والصحيح والخطأ سمة أصيلة في المجتمعات اللادينية. والرومنسية واحدة من الترهات التي يزعم أنها من الصّواب. وهي تعد في المجتمعات التي فسقت عن أمر الله ميزة سنية تليق بأفاضل الناس. إلا أنها، وكما سيتضح من تفصيلنا القول فيها، نهج خطير ومردٍ. وأخطر ما في الرومنسية هو رفضها للعقل الذي تعده نقيضا لفلسفتها.

إن هدفنا من تأليف هذا الكتاب هو لفت الأنظار إلى حقيقة أن الرومنسية، وإن بدت على ظاهرها سيما البراءة، مذهب يفضي إلى مخاطر محققة للفرد والمجتمع على حد سواء. كما سنبين أن النجاة من شرور هذا المذهب أمر ميسور، وذلك بالرجوع إلى القرآن بوصفه سبيل الهدى الأوحد الذي أنزله الله للبشر. وسنورد أمثلة كثيرة للتأكيد على حقيقة أن من يتبع القرآن لا يمكن بحال أن يطّرح العقل ويزهد فيه لأجل مبادئ منطلقها وعمدتها العاطفة وحدها.

## حول الكاتب

ولد عدنان أوقطار عام ١٩٥٦، وهو يستعمل الاسم المستعار هارون يحيى. ومنذ الثمانيات من القرن الماضي كتب عدداً كبيراً من المؤلفات في مواضيع مختلفة، إيمانية وعلمية وسياسية، إلا جانب ذلك يوجد للكاتب مؤلفات في غاية الأهمية تكشف زيف أتباع نظرية التطور، وتفند ادعاءاتهم، وتفضح الصلات الخفية، بين الداروينية والأيديولوجيات الدّموية.

وهدف المؤلف الرئيسي من وراء أعماله هو إيصال نور القرآن الكريم إلى شتى بقاع العالم، ودفع الناس بذلك إلى التفكير والتفكّر في قضايا إيمانية أساسية مثل وجود الله تعالى ووحدانيته، واليوم الآخر، وكذلك كشف الأسس المتهاونة لنظم الجاحدين وسلوكياتهم المنحرفة. وإلى حدّ الآن ترجم للكاتب نحو ٢٥٠ مؤلفاً إلى ٥٧ لغة مختلفة، وهي تحضى باهتمام بالغ من قبل شريحة واسعة من القرّاء. وبإذن الله تعالى سوف تكون كليات هارون يحيى خلال القرن الواحد والعشرين، وسيلة للبلوغ بالإنسان في شتى أنحاء العالم إلى مراتب السكينة والسلام والصدق والعدل والجمال والسعادة التي جاء التعريف بها في القرآن الكريم.



بسم الله الرحمن الرحيم
الله
رسول
محمد



# حول المؤلف

يتكون الاسم المستعار للكاتب من "هارون" و "يحيى" في ذكرى موقرة للنبيين اللذين جادلا ضد الكفر والإلحاد، بينما يظهر الخاتم النبوي على الغلاف رمزًا لارتباط المعاني التي تحتويها هذه الكتب بمضمون هذا الخاتم. ويشير هذا الخاتم النبوي إلى أنّ القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، وأنّ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين. وقد اتخذ الكاتب لنفسه القرآن الكريم والسنة النّبوية دليلاً ومرشدًا، وفي جميع المؤلفات أخذ العهد على نفسه بنسف جميع الأسس التي تقوم عليها النظم الإلحادية وإبطال كل المزاعم التي تقوم عليها الحركات المناهضة للدّين. ويعتبر هذا الخاتم الذي مَهر به كتبه بمثابة إعلانٍ عن أهدافه هذه.

تدور جميع كتب المؤلف حول هدف رئيسي هو تبليغ نور القرآن ورسالته لجميع الناس، وحثهم على الإيمان بوجود الله ووحدانيته واليوم الآخر، وعرض تهافت النظم الإلحادية وفضحها على الملإ.

تحضى كتب هارون يحيى بقبول واهتمام كبيرين في شتى أنحاء العالم؛ من الهند إلى أمريكا، ومن إنكلترا إلى أندونيسيا، ومن بولونيا إلى البوسنة، ومن إسبانيا إلى البرازيل، ومن ماليزيا إلى إيطاليا، ومن فرنسا إلى بلغاريا وروسيا.

ترجمت كُتب المؤلّف إلى العديد من اللّغات الأجنبية، ومن بين تلك اللغات: الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والأوردية والعربية والألبانية والروسية والبوسنية والإويغورية والاندونيسية والمالاوية والبنغالية والصربية والبلغارية والصينية والسواحلية (لغة مستعملة في تنزانيا) ولغة الهوسه (لغة منتشرة في إفريقيا)، ولغة الدّيولهي (لغة مستخدمة في موريس) والدانماركية والمجرية وغيرها من اللغات. و هناك إقبال كبير على قراءة هذه الكتب بهذه اللغات.

لقد أثبتت هذه المؤلفات جدارتها، ووجدت تقدير كبيرًا في كافة أنحاء العالم. وقد كانت سببًا في هداية كثير من الناس إلى طريق الإيمان وساهمت من جانب آخر في تقوية إيمان كثير من المؤمنين. وكل من يقرأ هذه الكتب ويتأمل فيها يلاحظ بوضوح الحكمة البالغة التي تكمن فيها والسهولة الموجودة بين ثنايا سطورها والصدق الذي يميز أسلوبها والعمق في تناول القضايا العلمية. وما يميّز هذه المؤلفات أيضا سُرعة تأثيرها وضمان نتائجها وعدم القدرة على نقض ما فيها ودحضه. وكل من يقرأ هذه الكتب ويتأمل فيها بعمق لن يكون بإمكانه بعد ذلك



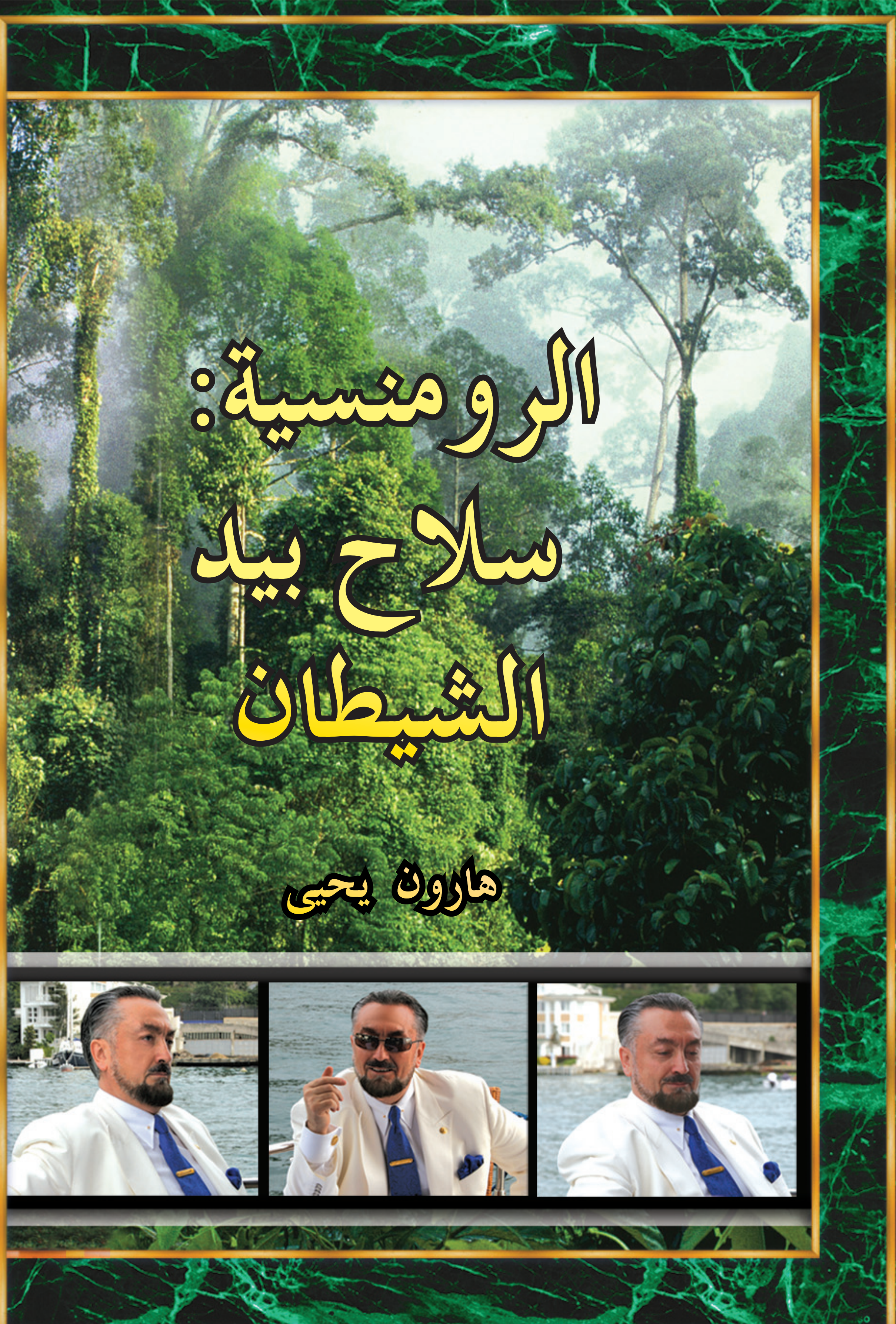
الدّفاع عن الفلسفات المادية والآراء الإلحادية والأفكار المُنحرفة الأخرى.

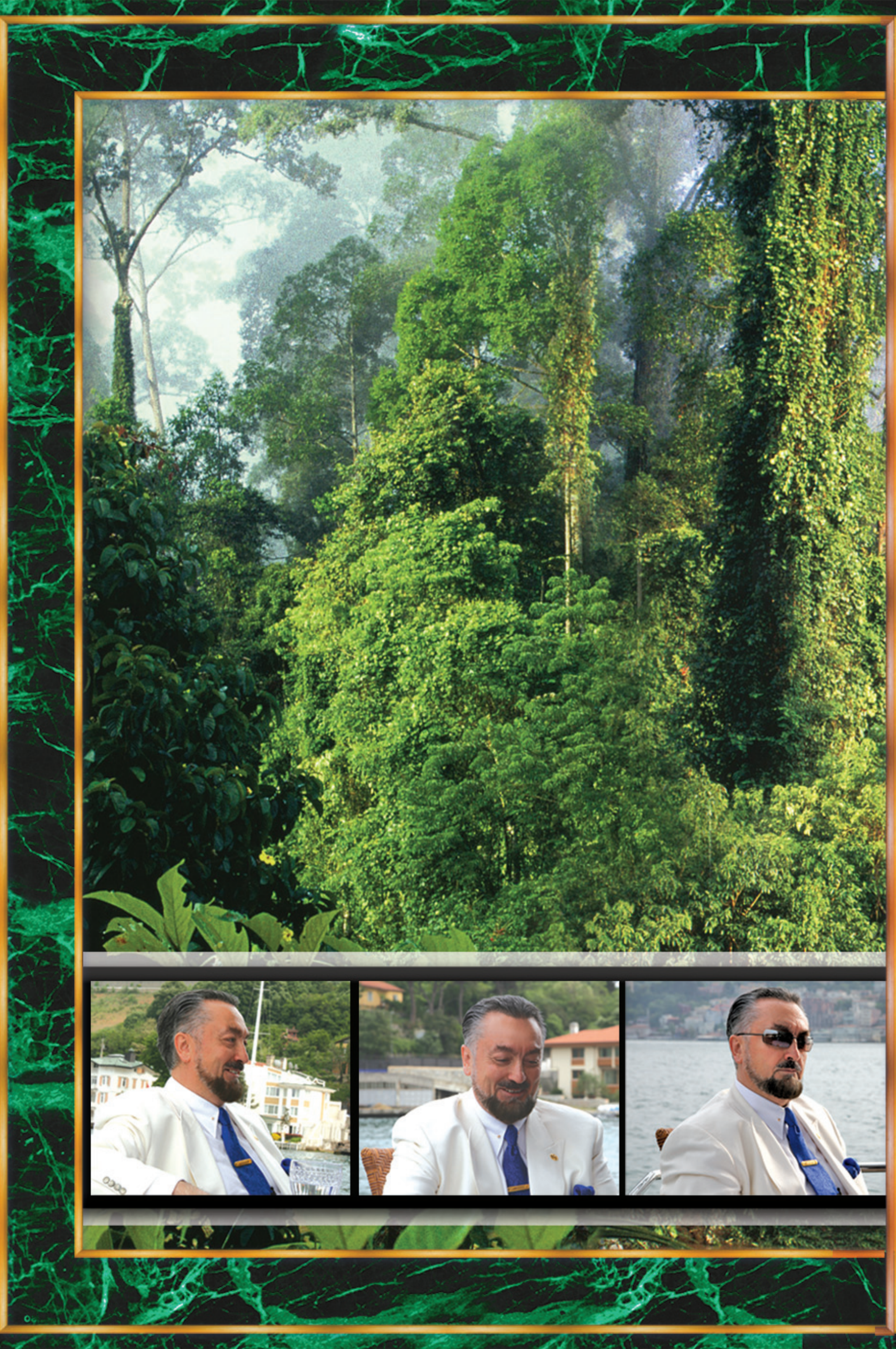
وإذا حدث وأن نافح منافح عن تلك النظريات بعد مطالعة هذه المؤلفات فلن يكون ذلك سوى عن عنادٍ عاطفي لأنّ السّند العلميّ قد تمّ دحضه وإبطاله. ولا شك أن هذه الخصائص نابعة من قوة حكمة القرآن وحُججه الدّامغة. والكاتب لا يسعى من وراء عمله هذا إلى نيل المديح والثناء إنما هدفه وغايته هداية الناس والسير بهم في طريق الإيمان، كما أنّ ليس همّه تحصيل أيّ ربح أو مكسب مادّي.

وعلى ضوء هذه الحقائق، فإن الذين يساهمون في نشر هذه الكتب ويحثون الناس على قراءتها لتكون وسيلة لهدايتهم هم في الحقيقة يقدمون خدمة للدين لا تقدّر بثمن.

وعلى هذا الأساس، فإنّ العمل على نشر الكتب التي ثبت بالتجربة أنها تشوش الأذهان وتُدخل البلبلة على الأفكار وتزيد من الشّكوك والتردّد ولا تملك تأثيرًا قويّا وحاسمًا في طرد الشبهات من القلوب، يُعتبر مَضيعةً للجهد والوقت. ومن الواضح أن هذه المؤلفات لم تكن لتترك كل هذا التأثير لو كانت تركز على بيان القوة الأدبية للكاتب أكثر من تركيزها على الهدف السامي المتمثل في هداية الناس. ومن لديه أدنى شك في ذلك فيمكنه أن يتحقّق من أن الغاية القصوى هي دحض الإلحاد ونشر أخلاق القرآن من خلال تأثير هذا الجهد وإخلاصه ونجاحه.

يتعين إدراك حقيقة مهمة، وهي أن الظلم والفوضى السائدين اليوم في أنحاء الأرض وما يتعرض له المسلمون من أذى سَببه تحكّم الفكر الإلحادي في شؤون العالم. والطريق الذي يضمن الخلاص من هذا كلّه هو إلحاق الهزيمة بالفكر الإلحادي وبيان حقائق الإيمان و إجلاء الأخلاق القرآنية بحيث يُصبح النّاس قادرين على التمسك بها. وبالنظر إلى حالة العالم وما يُراد له من مزيد جرّه إلى الفساد والشّرور والدمار فإنه من الضروري المُسارعة قدر المستطاع إلى القيام بما هو ضروري، وإلا فقد يُقضى الأمر ولاتَ حين مناص. وخلال القرن الواحد والعشرين، وبإذن الله تعالى سوف تكونُ كليّات هارون يحيى –من خلال نهوضها بهذه المهمّة– الوسيلة للوصول بالنّاس إلى مراتب السكينة والسلام والصدق والعدل والجمال والسعادة التي أوضحها لنا القرآن الكريم.


الرومنسية:
سلاح بيد
الشيطان
هارون يحيى



# إلى القراء الكرام

إن المواضيع الإيمانية الموجودة في جميع كتب المؤلف مشروحة وموضحة في ضوء الآيات القرآنية. وهذه الكتب تدعو الناس جميعًا إلى فهم هذه الآيات والعيش وفقا لتعاليمها. لقد تم شرح جميع المواضيع المتعلقة بآيات الله بحيث لا تبقى هناك أي شبهة أو تردد في ذهن القارئ. إن الأسلوب السلس والسهل والرصين المنبعث من القلب هو الذي يسَّر فهم هذه الكتب من قِبل الجميع صغارا وكبارا، ومن كل فئات المجتمع، بسهولة ودون أي صعوبة، وهو الذي جعل هذه الكتب كتبًا لا تستطيع أن تتركها قبل إتمام قراءتها. وحتى الذين اتخذوا موقفا معارضا للدين يتأثرون بالحقائق المذكورة في هذه الكتب، ولا يستطيعون دحض صحة محتوياتها.

وكما يستطيع القراء قراءة هذا الكتاب والكتب الأخرى للمؤلف على انفراد، فهم يستطعيون قراءتها بشكل جماعي، أو مناقشتها فيما بينهم والتسامر حولها. إن قراءة هذه الكتب بشكل جماعي ونقل كل فرد رأيه وخبرته إلى الآخرين أمر مفيد جدا.

علاوة على هذا، فإن المساهمة في تعريف هذه الكتب — التي لم تؤلَّف إلا لوجه الله تعالى ولمرضاته — ونشرها بين الناس تُعَد خدمة إيمانية كبيرة، لأن الأدلة والبراهين التي يوردها المؤلف في هذه الكتب قوية جدا ومقنعة، لذا كان على كل من يريد خدمة هذا الدين تشويق الآخرين لقراءتها والاستفادة منها.

إننا نأمل أن يتسع وقت القارئ للاطلاع على استعراض الكتب الأخرى، الذي نقدمه في نهاية هذا الكتاب، ليكون على علم بوجود منابع ثرَّة ومصادر غنية من الكتب في المواضيع الإيمانية والسياسية، التي تعد قراءتها مفيدة وممتعة للغاية.

لا ترى في هذه الكتب ما تراه في بعض الكتب الأخرى من رؤى شخصية للمؤلف، ولا ترى شروحا وإيضاحات مستندة إلى مصادر مشبوهة، ولا أي نقص أو قصور في أسلوب الأدب والتوقير الواجب اتخاذه تجاه المفاهيم والمواضيع المقدَّسة، ولا ما يجُر القارئ إلى الحيرة والتردد أو إلى اليأس والقنوط.

# المحتويات

# توطئة

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (ص/ 29)

في المجتمعات التي ضعفت فيها روح التدين تنقلب المعايير فيغدو الحق باطلا والباطل حقا. تفرح هذه المجتمعات وتزدهي بعقيدتها الضالة البعيدة عن هدي الله وتزدري الدين الحق وتحط من قدره. ولا غرو، فالخلط بين الحق والباطل والصحيح والخطأ سمة أصيلة في المجتمعات اللادينية.

والرومنسية واحدة من الترهات التي يزعم أنها من الصّواب. وهي تعد في المجتمعات التي فسقت عن أمر الله ميزة سنية تليق بأفاضل الناس. إلا أنها، وكما سيتضح من تفصيلنا القول فيها، نهج خطير ومردٍ. وأخطر ما في الرومنسية هو رفضها للعقل الذي تعده نقيضا لفلسفتها.

إن هدفنا من تأليف هذا الكتاب هو لفت الأنظار إلى حقيقة أن الرومنسية، وإن بدت على ظاهرها سيما البراءة، مذهب يفضي إلى مخاطر محققة للفرد والمجتمع على حد سواء. كما سنبين أن النجاة من شرور هذا المذهب أمر ميسور، وذلك بالرجوع إلى القرآن بوصفه سبيل الهدى الأوحد الذي أنزله الله للبشر. وسنورد أمثلة كثيرة للتأكيد على حقيقة أن من يتبع القرآن لا يمكن بحال أن يطّرح العقل ويزهد فيه لأجل مبادئ منطلقها وعمدتها العاطفة وحدها.

# مقدمـــة

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (الإسراء/ 64)

ثمة خطر دقيق وخفي يجتال الناس عن الدين ويحول بينهم وبين الخضوع لخالقهم ويجر عليهم صورا شتى من الضنك والأزمات في نهاية الأمر. ويمكن رؤية هذا الخطر في مشاهد مختلفة من حياتنا. فيمكن أن نراه في قبضة فاشي يلوح بها، أو في نشيد حماسي شيوعي، أو في كلمات خطاب سطرته يد رجل شاب يعبر فيه عن عشقه لحبيبته. كل هذه الأشياء تخرج من مشكاة شريرة واحدة. وأخطر ما في هذا الأمر هو أن كثيرا من الناس لا يعدونه خطرا البتة، كما يعزب عن إدراكهم أنه في واقع الأمر حالة عقلية تناهض الدين. بل يرى فيه كثيرون فضيلة تستحق التشجيع والترويج. إن الخطر الذي نعينه هو النزعة الرومنسية التي تغري الناس أن يحيوا طبق ما تمليه العاطفة لا وفق ما يقتضيه العقل، أي أن يحيوا وفق شهواتهم.

لقد غدت الرومنسية جزءا من الثقافة الجاهلية التي شمل تأثيرها ملايين الناس في العالم. بل هي إحدى الأدوات التي يستخدمها الشيطان لإبعاد الناس عن صراط الله المستقيم. وذلك لأن من يقع في قبضة النزعة الرومنسية يفقد القدرة على استخدام عقله. وحين يعجز عن استخدام عقله يجحد وجود الله ويذهل عن آياته وهديه ويضل عن شريعته. ولا يتسنى للإنسان أن يحيا حياة مستقيمة إلا إذا استخدم عقله وذلك بنص القرآن:

**﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾** (ص/ 29).

ولكي نكون أكثر دقة نقول إن داء الرومنسية إذا استفحل حال بين الإنسان وبين استيعاب جوهر الدين، كما أنه يطيل من أمد النزاعات العقيمة والمآسي والاعتداءات والضيق والعذاب الذي يلحقه الناس بأنفسهم في هذه الحياة.

يتناول هذا الكتاب موضوع الرومنسية من خلال النظر في بعض الأمثلة من الثقافة الجاهلية في التاريخ القريب وفي حياتنا اليومية. ولا ينبغي لأحد أن يظن أنه بمفازة من هذا الخطر، بل يتعين على الجميع التحوط والحذر من الورطة التي يريد الشيطان أن يوقعنا فيها.

# الحب المشروع
# والحب غير المشروع

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾ (الممتحنة/ 1).

إن النزعة العاطفية بمعنى الرومنسية قد تبدو أحيانا في ثوب "الحب". إذ يزعم القوميون الرومنسيون مثلا أنهم يحبون أوطانهم ولهذا فهم يحملون مشاعر العداء للأمم الأخرى. أو يمكننا التمثيل لذلك برجل شاب يعشق فتاة فيجعل منها محورا رئيسا تدور عليه حياته. إن فكرة الحب هي التي تدفع هذا الشاب إلى نظم القصائد التي يعبر فيها عن هيامه بمحبوبته وتعلقه بها، وهي التي تجعله مسكونا بهاجس معشوقه إلى درجة الانتحار، بل وتدفعه إلى تقديسه وتأليهه. ثم هناك المثليون أو المصابون بالشذوذ الجنسي الذين استحقوا لعنة الله ويصرون على ضلالهم دون أن يصدهم عن ذلك حياء، هؤلاء أيضا يزعمون أنهم قد وجدوا كنز الحب.

أما غالب الناس فيظنون أن كل عاطفة تتلفع بوصف الحب هي عاطفة فاضلة وطاهرة بل ومقدسة، وأن نماذج التطلع الرومنسي، كتلك التي سلف ذكرها، مقبولة ولا بأس بها.

ولا ريب أن الحب عاطفة رائعة تفضل الله بها على بني الإنسان، لكن من المهم التفريق بين الحب الحقيقي والحب الكاذب، كما لا بد من النظر إلى من توجه إليه عاطفة الحب والمشاعر التي تقوم عليها. ولا بد لهذا الفحص والنظر أن يجلي الفرق بين الرومنسية التي تقود إلى حب منحرف، والحب الحقيقي الذي دلنا الله عليه في القرآن الكريم.

هذه القضايا سنتعرض لها بالنظر في هذا الكتاب، لكن دعونا أولا نوضح معنى الحب كما جاء في القرآن. يقرر القرآن وجوب توجيه عاطفة الحب لمن يستحقونها ومنعها ممن لا يستحقونها. بل يأمرنا القرآن باعتزال من لا يستحقون الحب اعتزالا شعوريا أو على الأقل أن لا نبدي أي ميل تجاههم. لكن هؤلاء الذين يستحقون المودة إنما وجبت لهم بما تحلوا به من فضائل.

إن الله هو وحده الذي يستحق أن نحبه حبا مطلقا. فهو الذي وهبنا الحياة وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة وأبان لنا سبيل الرشاد ووعدنا الخلود في جنات الفردوس التي لا

تفنى ولا تبيد. وهو الذي يذهب عنا الحزن والكرب ويجيب دعواتنا. وهو الذي يطعمنا ويسقينا ويذهب ما بنا من لأواء السقام. ولهذا فإن من يدرك أسرار الكون يحب الله أكثر من حبه لأي شيء سواه ويحب الذين يحبهم الله، وهم عباده المخبتين الخاضعين لإرادته وحكمه. أما العصاة الفاسقين عن أمر ربهم فلا يستحقون الحب، بل إن حبهم جرم كبير يحذر الله منه عباده بقوله:

**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾**

**(الممتحنة/ 1)**

كما تشير الآية السابقة، فإنه يتعين على المؤمنين أن لا يلقوا بالمودة إلى العصاة الفاجرين. وثمة أمر مهم هنا يجب أن نعيه وهو أنه رغم أن المؤمن لا يحمل مودة لمن يرفض الدين ويعرض عنه، إلا أنه يسعى جهده لهدايته إلى الإيمان والخضوع لله. إن عدم محبة مثل هذا الشخص لا تعني كراهيته وتمني الشر له، بل إن من شأن المؤمنين بالله أن يوضحوا معنى الدين لكل شخص يرغب في التعرف على الحق وفيه استعداد لقبول الإرشاد. ويؤدي المؤمن الذي يذكر مثل هذا الشخص بوجود الجنة والنار ويخوفه من الموت واليوم الآخر، واجبه بكل عناية ورفق ورحمة.

ومع ذلك، فإن رفض الشخص للحق لا تحمل المؤمن على ظلمه أو إيذائه. فالمؤمن مأمور بمعاملة غير المسلمين بالحسنى مالم يبادروه بالعداء أو يحاولوا فتنته وذلك لأن الله أمر عباده فقال:

**﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ**

**وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة/ 8-9)**

يرشدنا الله في هذه الآية وفي الآية التي سبقتها إلى أمر في غاية الأهمية: وهو أن لا نسلم قيادنا للعواطف، وذلك لأن العواطف توقع في أخطاء جسيمة. فعلى المرء أن يتصرف وفق ما يمليه عليه عقله وإرادته الحرة وتوجيهات خالقه لا حسب ما تأمره عواطفه. كما يتعين عليه أن يمرّن عواطفه على الخضوع لعقله وإرادته.

ويمكننا معرفة هذه الحاجة بالتأمل في أحوال الذين سقطوا في مستنقع الرومنسية. إذ استعبدت الشهوات والطموحات والعواطف ومشاعر الغضب والكراهية مئات الملايين من الناس، فجعلتهم يتصرفون بطريقة غير عقلانية ثم يحاولون تسويغ فعالهم بزعم أنه لم يكن عندهم من خيار، قائلين مثلا: "ليس بيدي حيلة. لقد شعرت برغبة في عمل ذلك" لكن حب المرء الشيء لا يعني سلامة هذا الشيء أو مشروعية. إن نفوسنا الأمارة بالسوء تؤزنا دوما إلى اجتراح الآثام والشيطان يأمرنا بارتكاب أخطاء أكبر وأعظم. وحين يعصي العبد خالقه ويقول: "ليس بيدي حيلة، لقد رغبت في فعل ذلك"، فإن نفسه الأمارة بالسوء تكون في تلك الحالة أداة مسخرة للشيطان. ويتحدث الله في القرآن عن أمثال هؤلاء الناس فيقول:

**﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾**
**(الجاثية/ 23)**

في الصفحات التالية سنتعرض بالفحص والتحليل لأمثلة شتى للرومانسية المغالية، والتي هي أحد أشكال الرومنسية. وسنبين المخاطر التي تجرها على الناس طريقة التفكير هذه ثم نصف الدواء من هذا الداء.

# القومية الرومنسية

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

(الفتح/ 26).

يشيع بين الناس أن النزعة الرومنسية تعود جذورها إلى الحركة الرومنسية التي ظهرت في القرن التاسع عشر، إلا أن الرومنسية إلى جانب هذه الأشكال وثيقة الصلة بنزعات سياسية معينة. وأهم هذه النزعات "القومية الرومنسية" التي ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر وكان لها تأثير كبير على العالم إلى منتصف القرن العشرين.

في البدء يجب أن نصرح قائلين أن نقدنا ليس موجها إلى القومية في حد ذاتها، بل نقصد بنقدنا "القومية الرومنسية"، إذ ثمة بون شاسع بين الاثنين.

## التعصب القومي

تشير القومية في أظهر معانيها إلى حب المرء لبلده وقومه، وهو شعور جيد ومشروع. فطالما لم تتعارض القومية مع الدين فهي لا تنطوي على ضرر للإنسانية. فكما أن حب المرء لأمه وأبيه شعور مشروع، فحبه لوطنه الذي ترعرع فيه وتشبع بثقافة أهله كذلك مشروع. إلا أن المشاعر القومية تصبح غير مشروعة حين تخرج عن قيد العقلانية وتصبح عاطفية أكثر مما ينبغي. فلو انبرى المرء بدافع الحب لبلده يعادي البلدان الأخرى دون مبرر، أو طفق ينتهك حقوق الأمم والشعوب الأخرى ناظرا بعين مصلحته وحسب، كأن يغتصب أراضيهم أو يصادر ممتلكاتهم، فإنه يتخطى بذلك الحدود المشروعة. أو حين يسمح لحبه لوطنه أن يتحول إلى نوع من العنصرية زاعما أن أمته متفوقة في أصلها على ما عداها من أمم، فإنه يصبح بذلك صاحب موقف غير عقلاني.

يلفت الله انتباهنا في القرآن الكريم إلى هذه القومية غير العقلانية. فـــ "الحمية" التي تتحدث عنها الآية التالية سمة جوهرية للمجتمعات البعيدة عن هدي الدين:

**﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الفتح/ 26)** .

وكما تتحدث الآية المذكورة عن "الحمية" فهي تتحدث كذلك عن السكينة التي يسكبها الله في قلوب عباده المؤمنين. وهذا التجاور بين الحمية والسكينة في الآية يقرر خطأ وخطل موقف من يحمل مشاعر عدائية تجاه الآخرين بدافع من حبه لعشيرته أو مجتمعه. وعلى العكس من ذلك، يريد الله أن تشيع مشاعر الأمن والسكينة والسلام بين عباده. وبعبارة أخرى، إن الحالة الروحية التي يريدها الله لعباده هي تلك التي يكون فيها للعقل الكلمة الأخيرة.

لا تسمح الحمية بوجود مثل هذه الحالة المرغوبة، بل تغري مجموعة ما بمجموعة أخرى انطلاقا من فوارق اللون والعرق واللسان. ولقد تحدث الله عن هذه الحمية في القرآن الكريم قبل 1400 عام ولا تزال آثارها ماثلة للعيان في جميع أجزاء العالم. فثمة شعوب في أفريقيا تقتل شعوبا أخرى لا لشيء سوى انتمائها لقبيلة أخرى. وفي أوروبا تتحول مباريات كرة القدم إلى صدام مسلح حين يضرب مثيرو الشغب مشجعي الفريق الخصم حتى الموت. وفي العالم الغربي توجد تنظيمات هدفها الأول هو إثارة مشاعر الكراهية ضد الأمريكيين من أصل أفريقي واليهود والأتراك وغيرهم من الأقليات الأخرى، بل وتجعل منهم هدفا لهجمات إرهابية تشنها عليهم.

ولا ينحصر التعصب القومي في طبقات المجتمع الدنيا بل نجد آثاره ماثلة في الطبقات العليا من بعض المجتمعات. فثمة بلدان كثيرة تستغل خلافا حدوديا تافها فتجعل منه مسوغا لشن عدوان سافر. وتؤز الميول العدوانية هذه الدول إلى الدخول في حروب مطوّلة لا يقتصر ضررها على شعوب الدولة الخصم بل يصل إلى شعوبها هي مسببا لها ألوانا من المآسي والبؤس. إن الحكومات التي تتخذ قرارات الحرب هذه مصابة بداء التعصب القومي. وكما بيّنت الآية الكريمة فإن من امتلأ قلبه بالتعصب القومي عاش في ظلمة الجهل.

إن المصابين بداء التعصب القومي هم أيضا الذين تسببوا في أسوأ الكوارث التي شهدها العالم في القرن العشرين، أعني الحربين العالميتين الأولى والثانية. لقد دفعت

أفكار زائفة مثل "البطولة الألمانية" و"الشرف الإنجليزي" و "الشجاعة الروسية،" دفعت حكومات هذه الدول إلى الدخول في حروب لا معنى لها ذاقت بسببها شعوب أوروبا والعالم الأمرين وأزهقت فيها 65 مليون من الأرواح البريئة، وجرح وترمّل ويُتِّم بسببها عشرات الملايين من البشر.

إن التعصب القومي هو سبب هذه الفواجع كلها، ونحن الآن نشير إليه بــوصف "القومية الرومنسية"

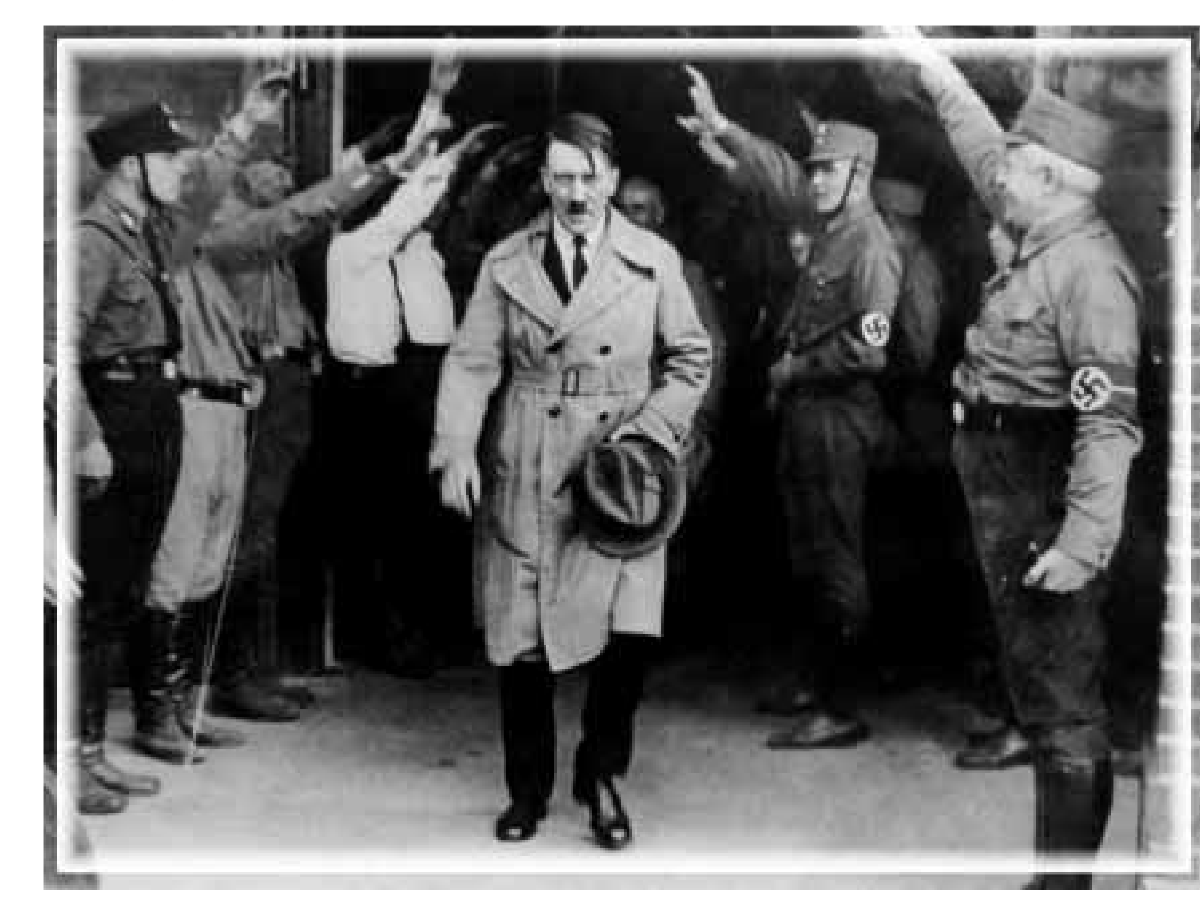
## ميلاد القومية الرومنسية

انتشرت النزعة القومية كفكرة في أوروبا في القرن الثامن عشر. وكان الناس قبلها يخضعون لسلطة عدد كبير من ملوك الإقطاع. لقد انضوت هذه الدول تحت راية دولة قومية واحدة تتولى إدارتها حكومة مركزية. وكانت دول أوربية مثل فرنسا وانجلترا من أولى الدول اعتناقا لفكرة القومية وأولها تحولا إلى نظام الدولة القومية. وبنهاية القرن التاسع عشر كانت معظم الأمم الأوربية قد حققت وحدتها القومية.

دولتان فقط لم تشاركا في هذا التطور السياسي وهما ألمانيا وإيطاليا. فقد عمّرت الحكومات المحلية والدول التي لا تتجاوز سلطتها حدود مدينة واحدة في كلا الدولتين أطول من مثيلاتها في الدول الأوربية الأخرى. ولم تنتقل إيطاليا إلى طور الدولة إلا في عام 1870م ثم تلتها ألمانيا في عام 1871م. وبعبارة أخرى، فقد كانت دولتا ألمانيا وإيطاليا أبطأ من الدول الأوربية الأخرى في اعتناق الأفكار القومية وتبنيها.

غير أن هذا الوضع الخاص قد تسبب في خلق نوع من القومية في هاتين الدولتين أكثر تطرفا من النزعات القومية التي انتظمت بقية الدول الأوربية. وطبقا لما يقوله علماء الاجتماع فإن انتشار المشاعر القومية المغالية التي ترتبط بما تحقق مؤخرا من وحدة قومية هو الذي قاد إلى ظهور أكثر أشكال القومية تطرفا في هذه الدول ووصولها إلى سدة الحكم في هاتين الدولتين، أعني النظام النازي والنظام الفاشي.

لقد عُرف الأشخاص الذين روجوا لفكرة التعصب القومي في هاتين الدولتين وفي ألمانيا بشكل خاص بـــ "القوميين الرومنسيين". وتتمثل أبرز سمات القوميين الرومنسيين في تغليبهم الشعور على العقل واعتقادهم أن لأمتهم "روحا" غامضة خاصة تضعها في مقام أسمى وأرفع من الأمم الأخرى. وبنهاية القرن التاسع عشر كانت القومية الرومنسية قد تأثرت بالنظريات العنصرية التي لقيت فيما بعد قبولا واسعا وأدت إلى ظهور فكرة تفوّق العرق الأوروبي على أعراق العالم الأخرى مما يخوله الحق في



**تمثل ألمانيا النازية أحد أسوأ تجليات "القومية الرومنسية". فقد تطورت هذه القومية العنصرية بفعل تأثير المثالية الرومنسية، كما يشكل الاضطهاد والبؤس الذي سببته نقطة سوداء في تاريخ البشرية.**

حكم هذه الشعوب.

وما لبثت القومية الرومنسية أن انتشرت بسرعة وبخاصة في ألمانيا في العقدين الأول والثاني من القرن التاسع عشر. وطفق كتاب من أمثال بول لاغاردي ويوليوس لانغبيهن يبشرون بنظام عالمي هرمي التكوين يتولى الألمان قيادته. وزعم هؤلاء أن إقامة هذا النظام ممكن بسبب التفوق الفطري "للروح" الألمانية و "الدم الألماني" وأن على الألمان إذا أرادوا تحقيق هذه الهيمنة أن يتخلوا عن الأديان التوحيدية مثل النصرانية ويعودوا إلى ماضيهم الوثني.

لقد لعب تنامي الجمعيات السرية في ألمانيا دورا مهما في نشر فكرة القومية الرومنسية خلال هذه الحقبة. وتتكون رؤية هذه الجمعيات السرية للعالم من عدة أفكار ضحلة منها: أنه يمكن للبشر إدراك الحقيقة لا عن طريق عقولهم ولكن بواسطة مشاعرهم وغرائزهم، وأن لكل دولة روح فطرية وأن الروح الفطرية لألمانيا هي روح وثنية. لقد مهدت هذه الجمعيات لظهور هتلر ونظامه النازي. كتب المؤرخ الإنجليزي ميشيل هوارد يقول: "إن ظهور الحركة القومية لعموم ألمانيا والتي استمدت زخمها الروحي من نظام الجمعيات السرية وأخذت عقيدتها من الفلسفات السرية الغامضة للجمعيات السرية، هي التي أخرجت للوجود المبادئ العرقية المتطرفة التي تمخضت عن الاشتراكية القومية في العشرينيات من القرن العشرين"[1].

لا جرم أن إسهام القومية الرومنسية الوحيد في مسيرة البشرية قد تمثل في التمهيد لظهور النظام النازي الذي يعد بحق أحد أكثر الأنظمة دموية ووحشية في التاريخ.

## شيزوفرينيا القومية الرومنسية

إن إيمان القوميين الرومنسيين بقدرة الإنسان على الوصول إلى الحقيقة بسبيل "الحس والغريزة" لا عن طريق العقل هو الذي حدا بهم إلى تبني رؤية للعالم يشوبها

الاضطراب وتعكس بؤسهم الروحي المدقع. وصف أستاذ التاريخ الأمريكي غيرهارد ريمبل الحالة الروحية للقوميين الرومنسيين في مقال بعنوان: "الإصلاح والتحرير والرومنسية في بروسيا" فقال:

"لقد حاول الرومنسيون الهرب إلى عوالم الفانتازيا والعاطفة والمجاز. ففي مجال الروح حاولوا اللعب بالموت والتفكير القلق في هدأة الليل الكئيب المعتم". قال نوفاليس (وهو من رواد الاتجاه الرومنسي الألماني في أطواره الأولى): "الحياة هي سقام الروح" وهذه بداية التشاؤم الجمالي. لقد كشفت الرومنسية الغطاء عن القوى غير العقلانية للروح الإنسانية. لقد آمن نوفاليس أنه يمكن توحيد كل العوالم والعصور بواسطة سحر الخيال. وعبر الأدب الوطني الذي ساد خلال حرب التحرير وصل "رقص الروح" هذا إلى قاعدة الجماهير الأوسع. ولقد طوّر الرومنسيون الألمان مبدأ النزعة الجمالية والتي مثلت من أول يوم رفضا للعقل ومحاولة لتحقيق الوحدة والوضوح بعمل فوري واحد. وكان الشعر في هذه النظرية هو الحقيقة المطلقة"[2].

لقد نهض بناء القومية الرومنسية على قاعدة الحس والشعور. وأنتجت هذه الأيديولوجية الخيالية أفرادا انبتت الصلة بينهم وبين الواقع وتاهوا في مفازات اضطرابهم العقلي. لقد قطعت الرومنسية أسباب الصلة بين معتنقيها وبين الواقع، وهي بهذه الصفة تشبه المرض النفسي المعروف بالشوزيفرانيا الذي يقطع الصلة بين المصابين به والواقع فيعيشون في عالم



**لقد لعبت النزعة العاطفية المغالية بعقول الجماهير في ألمانيا النازية، وانطلت عليها خدع النازية وأهدافها اللاإنسانية.**

من صنع أخيلتهم.

ثمة أوجه شبه معبرة بين مرض الفصام والحالة الروحية للقومية الرومنسية والتي تقوم على طائفة من الأفكار المغلوطة وأبرزها فكرة "الدم" و "وطن الآباء" والتي تتحول بعد ذلك إلى هوس ينقاد له أصحاب هذا الاتجاه بتسليم تام. لقد اكتسبت فكرة "الدم ووطن الآباء" زخما في ألمانيا في بداية القرن العشرين، فاكتسب الدم الألماني ووطن الآباء الألماني بموجب هذه الفكرة قدسية كما أعتُبِرت الأقليات غير الألمانية التي تقيم بألمانيا مصادر تلويث للدم الألماني وإفساد لأرض الآباء الألمان. ولقد كان لهذا التفكير تأثير كبير على الإيديولوجية النازية التي اعتبرت إراقة الدماء جزءا من حرب صليبية مقدسة. فعقب محاولة انقلابية فاشلة نفذها النازيون في عام 1923م أخذ هتلر راية من رايات الحزب النازي كانت ملطخة بدماء النازيين ليجعل منها معبودا تألهه قلوب أتباع الحزب. وعرفت هذه الراية فيما بعد باسم " Bluffing " أو "راية الدم". كما احتفظ النازيون بتلك الراية كما هي وأصبحت رمزا مقدسا تحتفي به جميع تجمعات النازيين. ومن العجيب أن رايات أخرى جديدة كانت تلصق بهذه الراية الأصلية حتى تنقل إليها شيئا من قداستها المزعومة.[3]




**في الصورة أعلاه ملصق دعائي من عهد النازية يرمز إلى القومية الرومنسية ويشحن الشعب الألماني بجرعة كبيرة من العاطفة الرومنسية.**

## القومية الرومنسية وإراقة الدماء

لقد أشعل الإيمان بقدسية الدم وإراقته أكثر الصراعات دموية في تاريخ البشرية. ولم تكن الحربان العالميتان الأولى والثانية سوى صدام بين قوميين رومانسيين. وكان تيار القومية الرومنسية

أكثر وضوحا في ألمانيا إلا أنه كان له تأثير في نفس الحقبة الزمنية في المجتمعات الإنجليزية والفرنسية والروسية حيث تسبب في جر هذه الدول إلى محارق الحروب. لقد صب هذا التيار الزيت في حرائق صغيرة كان يمكن حلها عن طريق الدبلوماسية ليتسبب في مذبحة هائلة أريقت فيها دماء الملايين من البشر.

إن فهم آثار القومية الرومنسية ونتائجها يقتضينا دراسة تطورات الحرب العالمية الأولى. فعلى الرغم من اشتراك دول كثيرة في تلك الحرب إلا أن حفنة قليلة من هذه الدول لعبت دورا محوريا فيها. ففي أحد جانبي الصراع كانت تقف انجلترا وفرنسا وروسيا، في حين كانت تقف على الجانب الآخر ألمانيا والمملكة المجرية النمساوية. وكان جنرالات الحرب من الطرفين مجمعين على استراتيجية عند بداية الحرب مفادها أنه يمكن تفريق صفوف العدو





**اندفع الناس بفعل تأثير القومية الرومنسية إلى أتون الحروب العالمية التي أوردتهم في قاع سجين مرصوف بالدماء والدموع والشقاء. وما وضعت تلك الحروب أوزارها إلا بعد أن ترملت آلاف النساء وتيتم آلاف الأطفال ودمرت آلاف المدن.**

والقضاء عليها بشن هجوم قوي الأمر الذي يتيح تحقيق نصر في غضون أسابيع قليلة.

في عام 1914م غزت ألمانيا فرنسا وبلجيكا فجأة، وبعد التقدم المبدئي الذي حققه الجيش الألماني اشتبكت قوات الجانبين في معركة حامية سحبت ألمانيا على إثرها الخطوط الأمامية لجيشها المهاجم ولم تحرز ألمانيا أي تقدم إضافي خلال ما يقرب من ثلاث سنوات ونصف السنة. هاجم كل طرف الطرف الآخر باستمرار أملا في شق جبهة الخصم إلا أن الوضع بقي كما هو دون تغيير يذكر. وفي معركة فيردون الشهيرة التي وقعت بسبب الهجوم الألماني قتل 315.000 جنديا فرنسيا و280.000 جندي ألماني مقابل تقدم ألماني لا يتجاوز بضع كيلومترات. وبعد أشهر لاحقة شن الفرنسيون والإنجليز هجوما مضادا في معركة سوم قتل فيه 600.000 جندي ألماني وما



**لقد تنوسيت قيمة حياة الناس بالكامل في الحروب التي نشأت بسبب ظهور القومية الرومنسية. فقد اندفع القادة الذين أسكرتهم الأفكار المثالية كـــ "الروح الألمانية" و "الشرف الإنجليزي" و"الشجاعة الفرنسية" إلى اتخاذ قرارات غير عقلانية فأوردوا بذلك شعوبهم موارد الهلاك.**





يزيد على 400.000 جندي إنجليزي وحوالي 200.000 جندي فرنسي. ومع ذلك لم تتراجع الجبهة الألمانية سوى 11 كيلومتر فقط. واتخذ قادة الاستراتيجية العسكرية في الجانبين، تلهب مشاعرهم وحماسهم أناشيد المارشات العسكرية والأشعار الحماسية التي كانت تمجد "الروح الألماني" و "الشرف الإنجليزي" و "البسالة الفرنسية"، قرارات طائشة تسببت في قتل شعوبهم. كما عانى أكثر الجنود الذين نجوا من الموت بعد بقائهم في الخنادق الوحلة لثلاث سنوات ونصف السنة دون أن يكون في مقدورهم رفع رؤوسهم بسبب القصف العنيف الذي لا ينقطع، عانوا هم أيضا أمراضا نفسية وعقلية بسبب الأهوال التي تعرضوا لها.

إن أحد نماذج للقتل العبثي الذي سببته القومية الرومنسية في الحرب العالمية الأولى يتمثل في الهجوم الذي قاده الجنرال الفرنسي روبرت نيفيل في أبريل من عام 1917م ضد ألمانيا. لقد صرح نيفيل قبل المعركة بأنه "سيتمكن من تفريق صفوف الألمان في غضون يومين وسيحقق نصرا ساحقا على الألمان في ظرف أسبوع واحد". ورغم أن الجيش الألماني كان في موقف



**شهدت الحرب العالمية الثانية ظهور عقلية سفك الدماء. فقد هلك خمس وخمسون مليونا من البشر بفعل هوس رومنسيين مثل هتلر وستالين وموسليني ممن أوقدوا نار الحرب العالمية الثانية بتطلعاتهم المثالية الطوباوية فقادوا العالم كله إلى وهدة القهر والقسوة والفساد.**

وموقع أفضل إلا أن الجيش الفرنسي تقدم للوفاء بهذا العهد غير العقلاني وشرع في الهجوم في 16 أبريل، إلا أن الهجوم الذي تمنوا انتهاءه في يومين استمر لما يزيد على شهر ونصف الشهر دون نتيجة تذكر سوى موت مئات الآلاف من الجنود ثم ظهور بادرة التمرد في أوساط الجنود الفرنسيين في نهاية الأمر.

ثم ما لبثت هذه العقلية المتعطشة للدماء أن برزت إلى السطح ثانية في الحرب العالمية الثانية، إلا أن ضحاياها هذه المرة كانوا أكثر منهم في الحرب العالمية الأولى. إذ لقي 55 مليون شخص حتفهم بسبب الطموحات الخيالية التي كانت تلعب بأذهان رومانسيين مهووسين مثل هتلر وموسيلني وستالين.

ولا يقتصر أثر الرومنسية على ميدان الصراعات الدولية فحسب بل لها يد طولى في ما يثور من حروب واعتداءات بين مختلف الدول والقبائل والتنظيمات. إذ يفزع الملايين إلى السلاح دون إدراك واضح للعوامل المتصلة بالوضع الذي يعيشون في



**بمقدور الأشخاص الذين تلعب الرومنسية بعقولهم وتزين لهم العنف والوحشية أن يذيقوا الآخرين ألوانا من العذاب والفتك اللاإنساني تفوق تصور البشر.**

ظله تلعب بعقولهم وعواطفهم الشعارات العاطفية وقصص البطولة والأشعار والأناشيد الحماسية فيسفكون دماءهم ودماء أعدائهم في مسعى فوضوي يقود العالم إلى مهاوي الدمار.

ذكرنا في فاتحة هذا الكتاب أن الرومنسية سلاح يستخدمه الشيطان ليبعد الناس عن صراط الله المستقيم وليوقعهم في مستنقعات البؤس. ويظهر هذا الفخ الذي نصبه الشيطان للإنسانية بوضوح في اتجاه القومية الرمانسية. ويحدثنا الله في القرآن الكريم كيف يسوق الشيطان أتباعه تلقاء مهاوي الرعب والفوضى والشنآن:

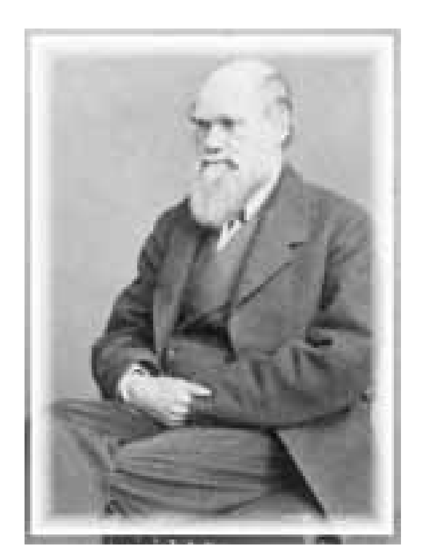
**﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (الإسراء/ 63-64).**

تبيّنن الآية الكريمة كيف يسيطر الشيطان على المنقادين لسلطانه "واستفزز من استطعت منهم بصوتك" و"أجلب عليهم بخيلك رجلك" أي وسائل إثارة القومية الرومنسية.

## الداروينية: المنطلق الفكري للقومية الرومنسية

اتكأ القوميون الرومنسيون على بعض الفلسفات والنظريات التي توصف زورا بالعلمية لتسويغ ولعهم بسفك الدماء. وأم هذه النظريات هي نظرية التطور والنشوء التي وضعها شارلس دارون.

ألف دارون، وهو عالم أحياء إنجليزي، كتابا أطلق عليه اسم "أصل الأنواع" ونشره في عام 1859م. قرر دارون في هذا الكتاب أن صراعا قاسيا يجري في الطبيعة تتطور على إثره وطبقا لنتائجه ظهورا واضمحلالا، الكائنات الحية وتظهر في الوجود أنواع جديدة من الكائنات الحية. وبعبارة أخرى، وبحسب رأي دارون فإن الصراع هو أس التطور في الطبيعة. وفي كتاب آخر عنوانه "مجيء الإنسان" نشر في عام 1871م



لقد زادت نظرية داروين العالم رهقا على رهق.

طرح داروين أفكاره بوضوح أكثر مؤكدا أن بعض أعراق البشر أكثر تقدما من الأعراق الأخرى ليضع بذلك الأساس للعنصرية العلمية. وبناء على هذه النظرية اعتقد داروين أن العرق الأبيض الأوروبي متقدم على الأعراق الأفريقية والآسيوية التي وصفها بالبدائية، وبانتشار نظرية داروين لقي العنف والعنصرية دعما واسعا وسريعا إلى حد غدت معه "حقيقة علمية".

وبهذا تتضح الصلة بين الداروينية والقومية الرومنسية، فقد كانت نظرية داروين هي الأساس الذي نبع منه ولع القوميين الرومنسيين بالصراع وهوسهم بالتفوق العرقي على الشعوب الأخرى. ويستطيع المرء أن يرى بوضوح الأثر الكارثي للداروينية في مقدار سفك الدماء الذي وقع في الحرب العالمية الأولى. فقد دفع الجنرالات الألمان والفرنسيون والإنجليز والروس والنمساويون بمئات الآلاف من الجنود إلى مصارعهم دون مسوغ. وكان منطلقهم إلى ذلك شعار داروين القائل: "تتطور الكائنات الحية عبر الصراع وترتقي الأعراق إلى مراق السمو والهيمنة بواسطة الحرب" هذا الضرب من التفكير هو الذي حفزهم إلى اتخاذ قرارات الحرب.

إن الصلة بين الحرب ونواميس الصراع الطبيعي كانت قناعة حملها مثلا فردريش فون بيرنهاردي أحد جنرالات الحرب العالمية الأولى. صرح بيرنهاردي قائلا:

" الحرب ضرورة بيولوجية" ويضيف: "إنها تضاهي في الأهمية صراع عناصر الطبيعة، إذ إنها تفرز قرارات صائبة من الناحية البيولوجية وذلك لأن قراراتها تنبع من طبيعة الأشياء".[4]

وكتب القائد العام لجيوش الامبراطورية النماسوية المجرية، الجنرال فرانس بارون كونراد فون هويتزيندروف في مذكراته التي سطرها بعد الحرب قائلا: "إن الأديان ذات الصبغة الإنسانية والتعاليم الأخلاقية والمبادئ الفلسفية قد تسهم في الحد من صراع

الإنسانية من أجل البقاء في صورته الأولية، ولكنها لن تفلح في القضاء على هذا الصراع بوصفه دافعا محركا للعالم. وعلى أساس هذا المبدأ حدثت كارثة الحرب العالمية والتي جاءت كمحصلة للقوى الدافعة الكامنة في حياة الدول والشعوب، مثلها في ذلك مثل عاصفة رعدية تحتم طبيعتها أن تفرغ حمولتها".[5]

وكتب كيرت ريزلر مساعد المستشار الألماني ثيوبالد فون بيثمان-هولويغس في عام 1914م قائلا: "**إن العداء المطلق والأزلي مركوز في أصل العلاقات بين الناس**، وإن مظاهر العداء التي نشاهدها في كل مكان ليست أثرا من آثار انحراف الطبيعة الإنسانية وإنما هي جوهر العالم ومصدر الحياة ذاتها".[6]

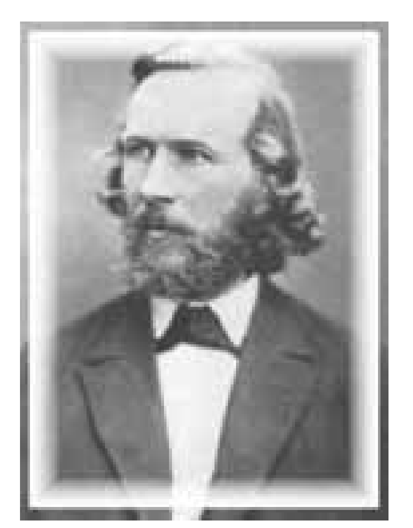
تشجع الرومنسية قيام رابطة عاطفية بين المنضوين تحت لوائها



**لقد زادت معدلات العدوان العنصري والعنف المصاحب له منذ ظهور نظرية دارون. ولا نزال اليوم نسمع ونرى مثل هذه المعتقدات المنحرفة في منظمات مثل "النازيون الجدد" و"الكوكلاس كلان" والتي تبسط يدها بالعدوان على السود وغيرهم من القوميات الأخرى غير البيضاء. ويجب أن نتذكر دائما أن مبدأ الداروينية الاجتماعية هو الذي أطلق هذه الشرور من عقالها.**

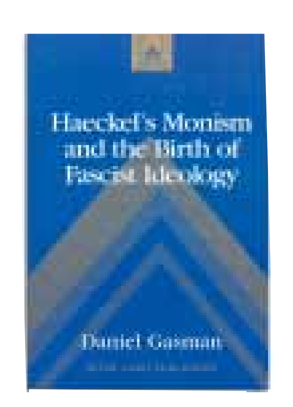
ولكنها تحض على بغض واحتقار الآخرين. وهذه الروح تنسجم تماما مع مفهوم داروين لـــ ‘‘صراع الأعراق من أحل البقاء’’. وعندما تطبق نظرية دارون في حقل العلوم الاجتماعية نجدها تأخذ اسم "الداروينية الاجتماعية"، كما أنها كانت متكأ رئيسا لتسويغ العنصرية والقومية الرومنسية. كتبت جانيت بيهل ضمن مقال بعنوان: "البيولوجيا وتطوير الفاشية في الجناح اليميني المتطرف في ألمانيا" كتبت تقول عن هذا الموضوع:

"**للداروينية الاجتماعية جذور عميقة في الجناح اليميني المتطرف في ألمانيا**. فعلى غرار الداروينية الاجتماعية الأنجلو أمريكية، أسقطت الداروينية الاجتماعية الألمانية المؤسسات الإنسانية الاجتماعية على العالم غير الإنساني بحسبانها "قوانين طبيعية" ثم استندتت على هذه "القوانين" للقول بأن الإجراءات الإجتماعية لبني الإنسان ظاهرة طبيعية. كما أنها طبقت مبدأ "البقاء للأصلح" على المجتمع. لكن في حين تصورت الداروينية الاجتماعية الأنجلو أمريكية "الأصلح" بأنه رجل الأعمال الفرد الذي يعمل ويعيش في غابة رأسمالية متوحشة، نجد أن الداروينية الاجتماعية الألمانية فهمت مصطلح "الأصلح" من منطلقات عرقية. وهكذا فإن "الأصلح" ليس فقط سيبقى بل يجب أن يبقى بعد أن يطيح بكل منافسيه في حلبة الصراع على البقاء". [7]



**إرنست هيغل: أبرز الدعاة لمذهب الداروينية الاجتماعي.**

لقد كان عالم الأحياء إرنست هيغل (1834-1919م) من أهم وأبرز ممثلي الداروينية الاجتماعية في ألمانيا. عزز هيغل الداروينية بطرحه للنظرية التي تلخصها عبارة




**كتاب آخر من تأليف غاسمان، يعالج تطور الداروينية الاجتماعية في ألمانيا بتفصيل أكثر.**

"تطور كائن فرد" والقائلة بأن الثدييات تكرر عملية التطور في تطورها الجنيني (تبيّن بعد سنوات لاحقة أن هذه النظرية لا أساس لها وأن هيغل قد زوّر الخرائط والرسوم البيانية التي استخدمها لإثبات نظريته وتوضيحها).

أسس هيغل ''عصبة المونيست'' Monist League وهي جمعية هدفت إلى نشر الإلحاد وأصبحت في ذات الوقت محورا تدور حوله المبادئ العنصرية والقومية الرومنسية. وفي العشرينيات من القرن العشرين تأثرت الحركة النازية، التي كانت في طور التكوين بقيادة هتلر، بأفكار هيغل و"عصبة المونيست". يقول المؤرخ دانييل غاسمان عن هذه التطورات في كتابه المعنون: ''الأصول العلمية للاشتراكية القومية: الداروينية الاجتماعية عند إرنست هيغل وعصبة المونيست الإلمانية'':

"يرجع الفضل في قيام الداروينية الاجتماعية الألمانية ذات النزعة العنصرية إلى هيغل. فقد ساعدت أفكاره على صياغة التوجهات العنصرية والإمبريالية والرومنسية والقومية والعداء للسامية في بناء أيديولوجي موحد. إن هيغل هو الذي حشد العلم لمؤازرة أفكار فولكيسم التي كانت توصم بالغموض واللاعقلانية".[8]

وكتب غازمان أيضا يقول:

"قد يقول قائل لو كانت الداروينية في انجلترا امتدادا للنزعة الفردية القائمة على مبدإ "دعه يعمل دعه يمر" بعد نقلها من عالم الاجتماع وإسقاطها على عالم الطبيعة، فقد كانت في ألمانيا إسقاطا للرومانسية الألمانية والفلسفة المثالية. إن الشكل الذي اتخذته الداروينية في ألمانيا كان دينا علميا مزيفا يقوم على عبادة الطبيعة وغموض الطبيعة مضافا إليه أفكارا عنصرية".[9]

وفي ذات المنحى كتبت جانيت بيهل قائلة: ''كان هيغل يؤمن كذلك بالقومية

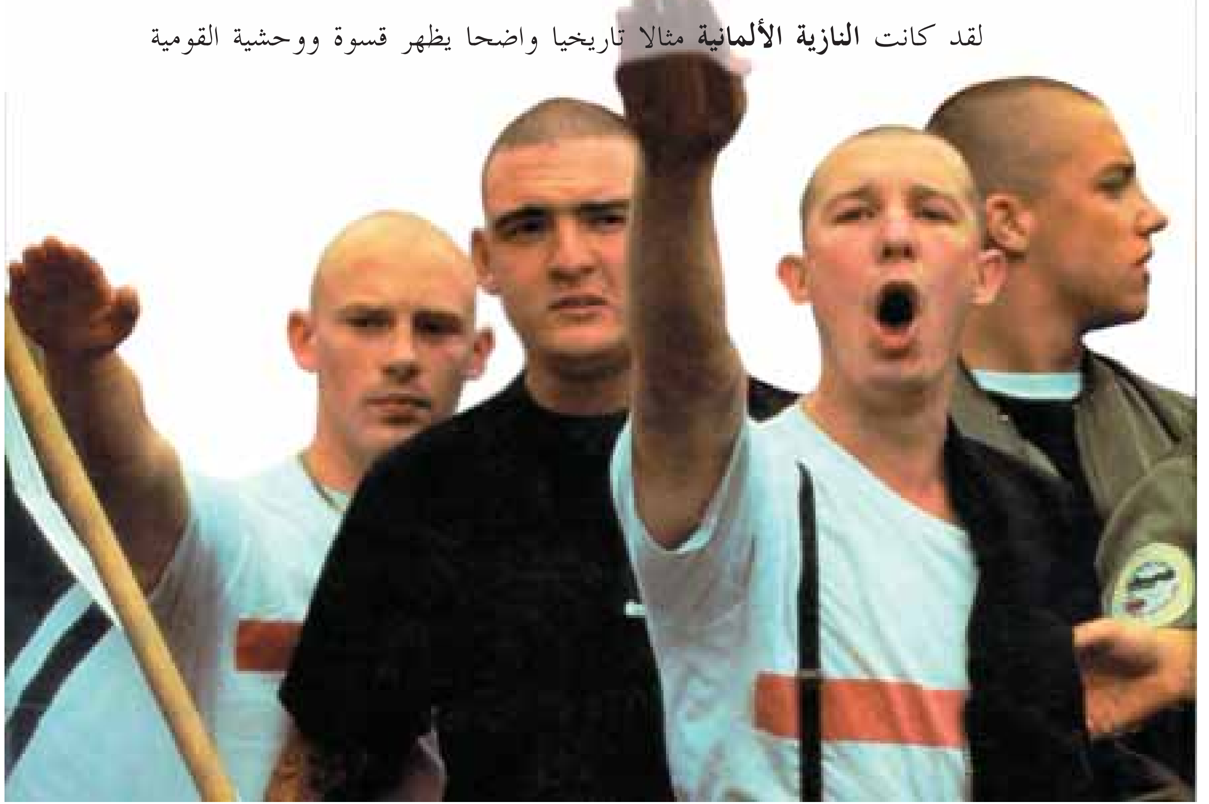
والعنصرية الغامضة ولهذا كانت الداروينية الاجتماعية الألمانية من أول يوم مفهوما سياسيا أعطى العنصرية والقومية الرومنسية بعدا علميا زائفا".

## خاتمـــة

إن كل ما ذكرنا يظهر مجددا أن الرومنسية نزعة نفسية ورؤية للعالم خارجة عن حدود الدين ومعادية له. ويتضح هذا أيضا من حقيقة أن الداروينية التي كانت تقريبا مرادفة للإلحاد منذ أن طرحها دارون على الناس، هي رومانسية ضمنية.

إن علاقة القومية الرومنسية بالداروينية ودوورها في صعود الحركة النازية، تكشف عن حقيقة مهمة أخرى وهي أن الرومنسية مؤذية للأفراد وللمجتمعات. وإن ضحايا هذا الاتجاه يسهل جرهم إلى طريقة تفكير مناهضة تماما للعقل والحكمة والضمير الأصيل. فقد ينجرون مثلا إلى الاعتقاد بأن العرق الذي ينتمون إليه متفوق على جميع الأعراق الأخرى، وأن لهم الحق في شن الحروب وغزو الدول واحتلال معظم أراضي العالم، وأنه يجوز لهم استعباد الأمم والشعوب الاخرى وإبادتها.

لقد كانت **النازية الألمانية** مثالا تاريخيا واضحا يظهر قسوة ووحشية القومية





الرومنسية وولعها بالهدم. فعندما وصل النازيون إلى سدة الحكم في عام 1933م شن هتلر وأعوانه من الجنرالات حملة لنشر المشاعر الرومنسية، وفي غضون فترة وجيزة تبنى المجتمع الألماني ترهات القومية الرومنسية الفارغة. وبنهاية عقد الثلاثينيات من القرن الماضي كانت الغالبية العظمى من الألمان تؤمن بـــأنه لن يمر وقت طويل حتى تقوم إمبراطورية ألمانية (الرايخ الثالث) تتمكن من حكم العالم أجمع ويمتد عمرها إلى ألف عام. وآمن الألمان أن تحقيق هدفهم يحتم عليهم تطهير العرق الألماني وتنقيته بالتخلص من جميع الأقليات العرقية في البلاد. كما اعتقدوا أن هتلر قائد لا يمكن هزيمته ويمتلك قدرات خارقة وسيقودهم إلى نصر محقق. لقد سحر هتلر بخطبه الغاضبة والمهووسة والعنصرية الألمان وأفقدهم الإحساس بالواقع.

لقد كانت مسيرات نوريمبرج الشهيرة التي كان ينظمها تنظيم النازيين دليلا واضحا على **غسيل الأدمغة الرومنسي** الذي كان يجري للألمان في ذلك الوقت. ولقد وصف الباحثون الأمريكيون الثلاثة: ميشيل بيغنت ورتشارد ليه وهنري لينكولن هذه اللقاءات النازية بالعبارات التالية:

"لم تكن مسيرات نورمبرج سيئة السمعة من شاكلة المسيرات السياسية التي



تقع في الغرب اليوم ولكنها كانت إعدادا مسرحيا خبيثا مثل عنصرا مكملا للمهرجانات الدينية الإغريقية. لقد كان كل شيء – ألوان الأزياء والرايات ووضع النظارة والساعة الليلية واستخدام الأضواء الغامرة والتوقيت – محسوبا بدقة متناهية. لقد أظهرت عروض الفيديوكليب الناس **وقد بلغوا من الإثارة كل مبلغ** وهم ينشدون في لذة ونشوة مرددين شعار "سيغ هيل" Sieg Heil ويقدسون الفوهرر وكأنما هو إله. **وكانت تبدو على وجوه الجماهير ملامح غبطة مجنونة**. لم يكن ذلك الحال نتيجة لقناعة الناس بما يقوله لهم الفوهرر، وذلك لأن خطب هتلر لم تكن مقنعة البتة. فقد كانت خطب هتلر في الغالب مبتذلة وصبيانية ومكررة ولا قيمة لها، إلا أن طريقة هتلر في الإلقاء كانت مشحونة بطاقة سامة وكان لها نبض إيقاعي مخدر مثل قرع الطبول، وحين يضاف إلى هذا عدوى العاطفة الجماهيرية الجياشة وضغط آلاف الناس المحتشدين في منطقة محصورة، تكون النتيجة **هستيريا جماهيرية** هائلة. إن المرء ليشاهد في التجمعات النازية التي يخاطبها هتلر تغييرا للوعي كذلك الذي ينسبه الأطباء النفسانيون إلى تجربة نفسية غامضة".[11]



كان هناك شعور بالحاجة إلى إيجاد رموز متميزة لإثارة المشاعر القومية الرومنسية لدى الشعب من شاكلة: "الجيش الألماني"، "الشعب الألماني"، "العلم الألماني" و "الدم الألماني"، إلخ..



**لقد سيطرت النزعة العاطفية التي نفثها الشيطان في مشاعر الناس. فقد اصاخوا باهتمام لخطب هتلر، بل وأثنوا على جرائمه الوحشية.**



ولو تحرينا الدقة لقلنا إن اللقاءات الجماهيرة النازية كانت بمثابة جلسات تنويم مغناطيسي جماهيري تُجرّد فيها الجماهير من ملكة التفكير وتخضع لسلطان العاطفة مما يسهل قيادتها إلى جميع ضروب الشر والفساد. ولهذا يسهل تضليل الشخص الرومنسي. إذ يمكنه أن يصبح في ظل ظروف مناسبة وفي وقت وجيز عنصريا أو فاشيا متحمسا. كما يمكنه أن يصبح مجندا شيوعيا يهاجم الناس الأبرياء وهو يردد أناشيد المارشات اللينينية أو أن يفقد عقله إلى درجة يقدم معها على إشعال النار في جسده في سبيل ما يعتبره قضية عادلة. إن من الممكن أن يكون الرومنسي قاسيا ووحشيا في لحظة ما في حين تجده يبكي بحرارة في لحظة أخرى. وليس ثمة حدود للجنون الذي ينشأ حين تتعطل آلة الحكمة ويصبح المرء أسيرا لعواطفه أو بالأحرى للمشاعر غير العقلانية

# تعدد أيديولوجيات الرومنسية

﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء/ 118-119)

التي يهيجها الشيطان في دواخله.

تعرضنا في الفصل السابق من الكتاب إلى آثار الرومنسية الناشئة عن القومية الرومنسية. وسننظر في هذا الفصل إلى بعض التجليات الأخرى للرومنسية وذلك للتعرف على بعض المصائب التي جرتها على الإنسانية. وأول هذه الأيديولوجيات التي سنتحدث عنها هي الشيوعية التي لا تقل سوءا عن القومية الرومنسية.

## الرومنسية الشيوعية

طُرحت الشيوعية أول ما طرحت بزعم أنها أيديولوجية عقلانية. وكان مُؤسساها كارل ماركس (1818-1883م) وفريدريك انجلز (1820-1895م) قد تبنيا الفلسفة المادية والتي ظنا أنهما يستطيعان تطبيقها على حقل العلوم الاجتماعية لتفسير "قوانين التاريخ". ولقد فرّق ماركس بين مراحل مختلفة من التاريخ: فالدول المتقدمة في ذلك الوقت مثل بريطانيا كانت تعيش في "الطور الرأسمالي". تنبأ ماركس أن هذا الطور ستعقبه ثورة يشعلها العمال ثم تعقبها مرحلة الاشتراكية. كما تنبأ بأن هذه الثورة ستحدث بشكل تلقائي، أي أنها ستقع بمبادرة من العمال أنفسهم وأنها ستقع في بريطانيا وفي غيرها من الدول الصناعية، إلا أن تنبؤات ماركس لم تصدق. والحق أن إخفاق هذه التنبؤات تجلى خلال 30 إلى 40 عاما بعد هلاك ماركس. فلم تقع ثورة في بريطانيا ولا في غيرها من الدول الصناعية الأخرى، بل حدث العكس حيث تحسنت ظروف العمال الاجتماعية والاقتصادية.

## زيف ادعاء الشيوعية للعقلانية

عليه يجب تصنيف نظرية ماركس ضمن الأخطاء التاريخية الكثيرة التي ارتكبت باسم "علم الاجتماع" ويجب بالتالي إطّراحها. إلا أن هذا لم يحدث، فقد حاولت مجموعة من الأفراد وصفوا أنفسهم بـــ "الماركسيين" وبمشقة تحقيق نبوءات ماركس الخائبة. فرغم عدم حدوث الثورة التي تنبأ ماركس بأنها ستحدث بشكل تلقائي، فقد

سعى الماركسيون إلى إحداث هذه الثورة بتأسيس التنظيمات التي ستفجر هذه الثورة بوسائل القوة والعنف. وكان لينين هو أبرز وأهم الشخصيات الماركسية التي سعت لمراجعة نظرية ماركس والتماس العذر لفشل تنبؤاته.

أكد لينين أن الثورة لن تقع في البلدان المتقدمة مثل بريطانيا، ولكن ستحدث في البلدان المتخلفة صناعيا مثل روسيا. وزعم بأن الشيوعية ستصادف نجاحا في روسيا وستنتشر من هنالك إلى بقية أرجاء العالم.

ولتحقيق حلمه هذا قضى لينين سنوات كثيرة داخل وخارج روسيا وهو يعد العدة لقيام الثورة. وقد لاحت الفرصة للينين لتحقيق حلمه بسبب الفوضى والاضطراب الذي أحدثته الحرب العالمية الأولى. إلا أن تنبؤات لينين منيت بالخيبة شأنها في ذلك شأن تنبؤات أستاذه ماركس، إذ لم ينجح النظام الذي أنشأه كما لم تنتشر الشيوعية إلى بقية أنحاء العالم كما تنبأ. فالاتحاد السوفيتي الذي أنشأه لينين يرقد اليوم في جوف التاريخ أما الأنظمة الشيوعية التي فرضها الشيوعيون على الدول التي احتلوها فقد تهاوت مثل أرواق التوت. وأصبح من المسلم به في العالم اليوم أن الشيوعية كانت أسوأ تجربة سياسية في القرن العشرين وأكثرها فشلا.

إن فشل النظرية الشيوعية وقصورها قد ثبت ليس فقط بعدم تحقق نبوءاتها وانهيار النظام الذي أنشأته بل وبإخفاق الأساس الفلسفي الذي قامت عليه. فقد برهنت الكشوفات العلمية في القرن العشرين على خطإ المبادئ التي نهضت عليها الفلسفة المادية والتي هي الأساس الذي قامت عليه الماركسية.

فمثلا:

1. زعمت الماركسية أن الكون أزلي الوجود وأن المادة لم تخلق، إلا أن نظرية الانفجار العظيم The Big Bang theory التي ظهرت في القرن العشرين تدل على أن المادة والزمن قد خلقا من عدم. تقول هذه النظرية أن الكون وجد من العدم قبل 10 إلى 15 مليار سنة ماضية في شكل نشاط صغير




**أبرز رموز الرومنسية الشيوعية يتمثل في صور البلوريتاريا وهم يحطمون القيود التي عليهم، وصور الأشخاص الذين يلوحون بقبضات أيديهم والأغاني الثورية التي تمجد الاشتراكية.**

ومفاجئ. وبعبارة أخرى، فإن الحقيقة التي تكشف عنها نظرية الانفجار الكبير هي أنه لا شيء يحدث بالمصادفة المحضة، وأن ثمة حركة أو نشاطا وقع من عدم، ثم أعقبه ظهور المادة والزمن. وبهذا تبطل هذه النظرية مزاعم الماديين تماما وتثبت أن الزمن والفعل الأول قد خلقهما الله تبارك وتعالى.

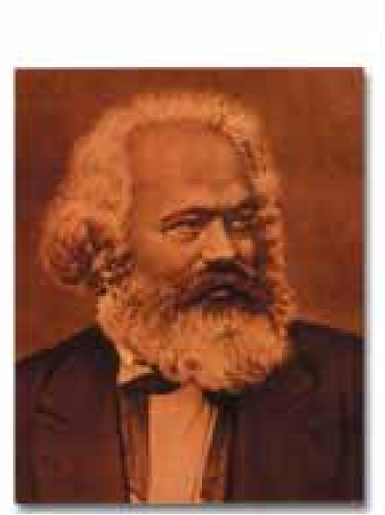
2. يزعم الماديون أن المادة والزمن مفهومان ''مطلقان''، أي أنهما موجودان على الدوام وثابتان ولا يعتريهما تغيير، إلا أن نظرية النسبية التي جاء بها إنشتاين أثبتت أن المادة والزمن ليسا مطلقين بل لا يعدوان أن يكونا

تصورات قابلة للتغيير.

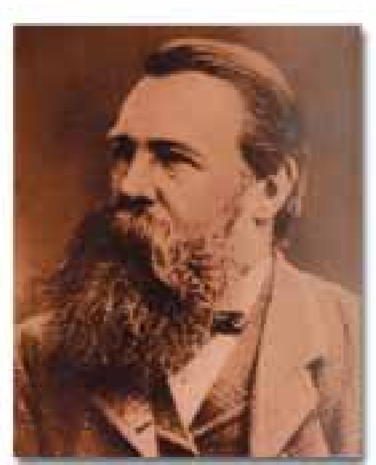
3. يزعم الماديون أنه يمكن اختزال النشاط العقلي للإنسان إلى تفسيرات مادية، إلا أن الكشف عن دقائق العقل أثبت وجود عدة وظائف عقلية لا تقابلها أي مظاهر من مظاهر العقل وشهدت على أن وجود عقل الإنسان سابق لوجود المادة وينتمي إلى عالم الروح.

4. يزعم الماديون أن الكائنات الحية لم تخلق بل جاءت إلى الوجود بالمصادفة المحضة كما تزعم نظرية داروين، إلا أن الكشوفات العلمية التي تمت في القرن العشرين تدحض هذا الزعم إذ يسلم الناس اليوم أن للمخلوقات تصميما بديعا لا تخطئه العين مما يقود إلى نسبة الخلق إلى الله تبارك وتعالى.

ونخلص من ذلك إلى القول بأن أي نظرية تدعي لنفسها العقلانية ثم ينهار ادعاؤها هذا في وجه تقريرات العقل والعلم ولا تساندها الحقائق الواضحة، فهي نظرية تستحق الرفض والازدراء. إنه يتعين على المؤمنين بهذه النظرية إخضاعها للفحص العقلاني، وسيتبين لهم إن فعلوا أنها زعم باطل لا يسنده





**عرابا الشيوعية، ماركس (إلى اليسار) وأنجلز (إلى اليمين). وفي الوسط الترجمة الروسية لكتاب ماركس: رأس المال.**

دليل. ولو انصاع الشيوعيون لحكم العقل والمنطق والعلم وتركوا التهويم في عالم الأحلام الرومنسية لوجدوا ألف سبب وسبب لاطّراح هذه النظرية والتبرإ منها.

ومن العجيب أنه لا يزال هناك من يتشبث بالشيوعية رغم جلاء عوارها، إذ لا نزال نرى ونسمع بخروج حركات ثورية في هذا الجزء من العالم أو ذاك تحاول تحويل الأحلام الماركسية إلى واقع عن طريق الثورة والحروب الأهلية وحرب العصابات والإرهاب.

لقد سقط الاتحاد السوفيتي وسقطت معه دول منظومة الكتلة الشرقية في حين تبنت الصين نظاما اقتصاديا رأسماليا، إلا أن الشيوعية برغم ذلك لم تُهجر. **فلا تزال الحركات الشيوعية فاعلة حتى تاريخ اليوم ولا تزال سادرة في سفك الدماء رغم قناعتها بأن الثورة التي تبشر بها لا تعدو أن تكون خيالا مجنحا.** إذ نراهم يلقون بأنفسهم في سواء المحارق والهلاك وهم يرددون الأناشيد الشيوعية الحماسية ويمسِّكون بعقيدتهم البالية في رومانسية وبعناد أعمى نواظرهم عن رؤية الواقع.



**إن الأشخاص الذين يشعلون النار في أجسادهم لأجل فكرة أو مبدإ إنما تتلبسهم حالة متطرفة من النزعة العاطفية. إن عجزهم عن التفكير العقلاني هو الذي يدفعهم لإتيان أفعال شاذة يعدونها ضربا من الشجاعة.**

بهذا يتبين لنا أن الشيوعية دعوة لا تستند إلى العقل، وأن أصحابها يتشبثون بها لأسباب لا تمت إلى العقل بسبب. ولا يرى الكثيرون لهذا التشبث بالشيوعية من سبب سوى التعصب الأعمى والهوس المجنون. لكن بعد مزيد من التقصي يتضح أن تحت هذا التعصب المفترض يقبع الأثر الطاغي للرومانسية.

## من أمثلة الرومنسية الشيوعية

في البدء لا بد من ملاحظة أن الناس في العادة يجهلون

الروح الرومنسية التي تسم الشيوعية وذلك لكثرة استخدام الشيوعيين لمصطلحات العلم والفلسفة والعقلانية في أحاديثهم، إلا أن الشيوعيين في حقيقة الأمر يطورون أفكارهم من منطلق نظرة رومانسية. بل نراهم يرفضون بعناد كل اكتشاف علمي لا يخدم أغراضهم ويصمونه بـــ "البرجوازية". وقد ذهب ستالين إلى أبعد من ذلك حين حاول صياغة هذا التحامل بالتفريق السخيف بين العلم "البرجوازي" والآخر "البروليتاري".

ومن الناحية الأخرى، **فلو أمعنا النظر في المنشورات والمجلات والأشعار والأناشيد الشيوعية لتبين لنا عمق الصلة بين الإيديولوجية الشيوعية والرومنسية**، إذ نجدهم يقدسون أفكارا معينة ويقيمون معها ارتباطا عاطفيا مفرطا. وأهم هذه الأفكار فكرة "الثورة". فـــ"**الثورة**" عند الشيوعي نهاية لكل شر وبداية لكل خير. ويتشبث الشيوعيون بيأس بفكرة خيالية هم موقنون بمفارقتها للواقع. ولا يعرضون فكرتهم عن "الثورة" على ميزان العقل كما لا يخطر ببالهم مثلا أن يتساءلوا قائلين:"ما هو الهدف من تفجير الثورة؟" "ما المسوّغ لتفجير ثورة يلقى فيها آلاف الأبرياء مصرعهم ويعاني بسببها المجتمع كله؟" "هل من سبيل آخر لإصلاح أحوال الفقراء سوى الثورة؟" "ما هو أثر هذه الثورة على الاقتصاد؟" "كيف ستحكم البلاد بعد الثورة وكيف ستحل صراعاتها الداخلية وكيف سيقضى على مهدداتها الخارجية؟".

لا يرى الشيوعي أي أهمية لهذه الأسئلة، لأن الثورة هي هدفه الأول والأخير. وإن حدث أن تكرم بالإجابة على هذه الأسئلة فستجده يفزع إلى كتب لينين وستالين ويردد ما فيها ببغاوية بلهاء دون أن يعطيك أي إجابة عقلانية. **فالأشعار العاطفية وأغاني الثورة الحماسية هي الرباط الوحيد الذي يشده إلى فكرة الثورة**. وكثيرا ما يتردد في أدب الشيوعيين الحديث عن "البلاد الجميلة التي تغطيها الأزهار" و "الشمس الحمراء على الأفق". والحق أنه يمكن تشبيه العلاقة بين الشيوعي وفكرته عن الثورة بقصة حب رومانسية. وثمة معارض للشيوعيين في الجامعات ومعارض كتب ومراكز ثقافية إذا دلفت إلى داخل أي منها رأيت ذات الرموز التي تستخدم لتبجيل وتجميل هذه الرومنسية. **فهناك صورة البروليتاري الجبار وهو يحطم القيود عن نفسه، وصور**



**إن أسوأ ما في الشيوعية هو محاولتها إبراز قادتها كاشخاص ذوي قدرات خارقة ولا هم لهم سوى خدمة الشعب. في حين أنهم لا يعدون كونهم مجرمين تسببوا في هلاك ملايين الناس. وتهدف هذه الدعاية إلى ربط الناس عاطفيا بقادتهم فينسون بذلك جرائم هؤلاء القادة.**

**لقبضات الأيدي وأغاني ثورية تحكي عن الكفاح حتى الموت عن الاشتراكية.**

وتنعكس هذه الرومنسية أحيانا على ثياب الشيوعيين وأزيائهم. فغالبا ما يرتدي الشيوعي الشاب سترة من الكاكي وغطاء للرأس من النوع الذي يرتديه الكوماندو، مقلدا بذلك المناضل الشيوعي من أمريكا اللاتينية، تشي غيفارا، ولا بد أنك واجد في غرفته ضمن متاعه الشخصي صورة لغيفارا. والفرق الوحيد بين الشيوعي وبين طالب الجامعة المهووس بأحد نجوم أغاني البوب يتمثل في نوع النجم الذي يمجده كل منهما، فنجمه المحبوب ليس مغنيا بل مقاتلا من مقاتلي حرب العصابات.

ومن الامثلة الأخرى المثيرة لرومانسية الشيوعيين **تلذذهم الكبير بما يتعرضون له من أذى وألم واستمتاعهم بتعاطف الناس معهم**. فالشيوعي السجين مثلا قد يدخل في **إضراب عن الطعام** قد يفقده حياته لقاء تحقيق بعض الأهداف التافهة. فهو من جهة يتلذذ بما يصيبه من ألم ويسعد بتعاطف الناس معه ومن الجهة الأخرى يفخر لدخوله

زمرة الأبطال.

ويصل الاستمتاع الرومنسي الذي يجده الشيوعيون في الألم إلى مستويات عالية أحيانا. فقد ارتكب الشيوعيون أعمالا وحشية مخيفة في مظاهراتهم، فتجدهم مثلا يشعلون النار في أجسادهم أو يقيدون واحدا منهم إلى أعمدة حديدية ثم يصبون عليه سائلا شديد الاشتعال ثم يشعلون النار فيه ثم ينشدون الأناشيد الشيوعية الحماسية وهو يحترق. وكما يتضح من اللقطات والصور المحفوظة فإن تصرفات الأفراد الذين يرتكبون هذه الأعمال الوحشية تشبه كثيرا تصرفات مواكب النازيين، إذ إنهم يدخلون في حالة من " فقدان الوعي" والخدر العاطفي والنفسي.

لا شيء سوى العناد يبقي الشيوعي على شيوعيته رغم علمه باستحالة تطبيق المثل التي يؤمن بها. وهذا الالتزام الأعمى بالأيديولوجية تعكسه تبجحات من شاكلة: "لا يهمني إن كانت الشيوعية






**هذا الملصق رمز تقليدي للرومنسية الشيوعية. وهي ملصقات تهدف إلى ربط الشعوب عاطفيا بقادتهم ومبادئ هؤلاء القادة.**

مبدأ مغلوطا، ولا يهمني إن نجحنا أو أخفقنا، المهم أنا شيوعي وسأظل كذلك حتى الموت". ولا جرم أن هذا سلوك يعرض عنه ويمجه كل شخص عقلاني. ويشبه هذا الانقياد الأعمى حالة الجنون التي يعكسها تعلق رجل بامرأة وبقاؤه على حبها رغم خداعها وإذلالها له.

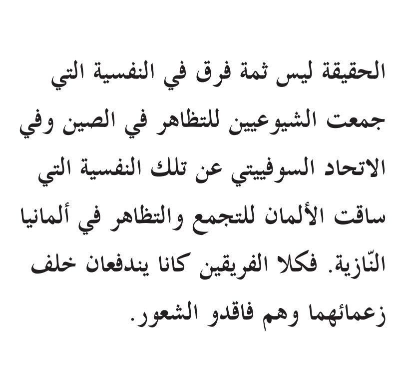


لاريب أنه قد تبين الآن أن الشيوعية ليست سوى نوع من أسلحة الرومنسية التي يستخدمها الشيطان ليسلب البشر عقولهم وليلفتهم عن عبادة ربهم والإيمان به.



ورغم زعم المؤمنين بالشيوعية أنها مبدأ وفلسفة عقلانية إلا أن الشيوعية تحتشد بالأفكار المناقضة لصريح العقل والعلم. وقد مضى الآن على الأقل قرن ونصف من الزمان ظل فيه الشيوعيون يستميتون في الدفاع عن عقيدتهم ليبرهنوا على أن ولاءهم لقضيتهم ذو طابع رومانسي.





**الحقيقة ليس ثمة فرق في النفسية التي جمعت الشيوعيين للتظاهر في الصين وفي الاتحاد السوفييتي عن تلك النفسية التي ساقت الألمان للتجمع والتظاهر في ألمانيا النّازية. فكلا الفريقين كانا يندفعان خلف زعمائهما وهم فاقدو الشعور.**

# الرومنسية باسم الدين

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف/ 28).

ليست الرومنسية أيديولوجية كاملة النمو في ذاتها، بل هي روح تتقمص أيديولجيات أخرى مختلفة لتمنحها خاصية عاطفية تتيح لها سلب عقول الناس. وكما تخترق الرومنسية الأيديولجيات اللادينية المنحرفة مثل العصرية والشيوعية والفاشية، فإنها تؤثر في بعض الأحيان على أصحاب الديانات.

قبل أن نلج في في هذا الموضوع يحسن بنا استيعاب مسألة في غاية الأهمية، وهي أن انتساب حركة ما إلى الدين لا يعني أنها محقة في دعواها هذه. فالتاريخ يزخر بأمثلة كثيرة لأفراد وجماعات وأفكار كان هدفها تدمير الدين وأتباعه رغم تلفعها بلبوس الدين. ويقدم لنا الله أمثلة لهذه الحالات في القرآن الكريم. فجد في القرآن مثلا قصة رجل مجرم كان يخطط لقتل نبيء الله صالح. لقد تعاهد هذا الرجل والمتآمرون معه باسم الله قائلين:

﴿ **قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ (**النمل/ 49**).

إن الوثنيين الذين خالفوا الرسل وحاربوهم كانوا دائما يتهمون رسل الله بـــ "افتراء الكذب على الله" ناسبين أنفسهم إلى التقوى ومخافة الله:

﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ (**الشورى/ 24**).

ففرعون الذي بلغت به الوقاحة حدا جعله يدعي الألوهية يقول عن موسى:

﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ** ﴾ (**غافر/ 26**).

وهذا دليل على أن من الممكن للمرء أن يكون منحرف الفكر والسلوك رغم رفعه لراية الدين، والرومنسية تأتي على رأس الانحرافات التي تنسب ظلما إلى الدين رغم أنها لا تمت إلى الدين بسبب.

ولكي نفهم كيف خلط البعض الرومنسية بالدين، **فمن المهم أن نحيط علما بفكرة "الإخلاص"**. فالإخلاص معناه أن تفعل شيئا تبتغي به وجه الله فقط. فإذا استوفى

العمل شرط الإخلاص صار عبادة يرضاها الله. فالصلاة والصيام والزكاة والجهاد في سبيل الله وغير ذلك من أفعال لا تكون عبادة إلا إذا قصد بأدائها وجه الله تعالى. وأي عبادة لم يرد بها وجه الله فهي باطلة بنص القرآن:

**﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾**

**(الماعون/ 4-6).**

وهذه هي الطريقة التي تشّوه بها الرومنسية الدين. **فهي توجه الدين صوب غايات لا يراد بها وجه الله، كما أنها تقدم الدين كتجربة عاطفية يشبع الناس فيها حاجاتهم العاطفية**، ولا تمارس طمعا في رضوان الله.

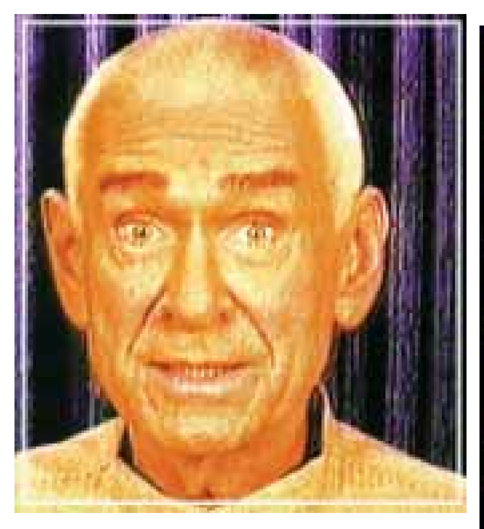
إن الرومنسية بتغطيته ا لهذا الفرق الخفي والمهم تغرس في أذهان الناس فهما

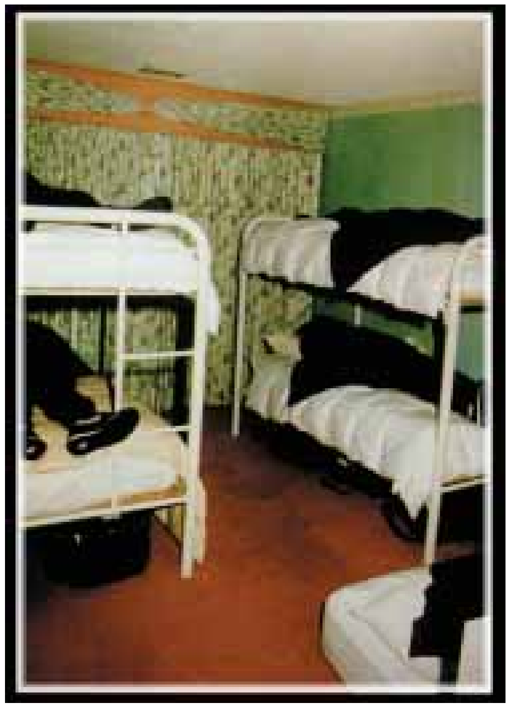






**ساقت الرومنسية المغلفة بغلاف الدين العديد من أتباعها إلى الانتحار الجماعي في الولايات المتحدة الأمريكية. وإلى اليسار نشاهد صورة لــ"دافيد كوراش" الذي قاد 80 شخصا من أتباعه إلى الموت في عام 1993. أما الصورة الموجودة في الأعلى فهي لــ "جيم جوناس"، وفي عام 1978 قاد 900 شخص من أتباعه إلى الانتحار.**





**إن الناس الذين يُلقون بأنفسهم في الاتجاهات المنحرفة تحت تأثير الأحاسيس يبتعدون أكثر فأكثر عن الدين الحق وتوجيهات العقل السليم. والصورة الموجودة في الأعلى هي لـــ"هرف أبلووايت". وهذا الشخص يلقب بـــ"دو"، وقد صدق أتباعه أقواله فانتحروا بشكل جماعي.**

مغلوطا للدين فينتج عن ذلك ازدهار المذاهب الباطنية وانتشارها. فعندما يذهل الناس عن فهم الدين بوصفه خضوعا لله ويشرعون في النظر إليه كأداة لتحقيق "**النشوة النفسية**" عندئذ تظهر في أوساطهم طائفة من الممارسات الباطنية التي تورطهم أكثر في هذا السلوك.

عندما نجري مقارنة بين الدين المُخدّر بالرومنسية والدين الذي أنزله الله في القرآن تستبين لنا جملة من الفروق هي:

**1**. يوجه الله الناس في القرآن لاستخدام عقولهم وإجالة مطي فكرهم في آفاق الكون وما فيه من مخلوقات لعلهم إلى ربهم يرجعون، **إلا أن النظرة الرومنسية للدين تستبعد العقل ولا ترشد الناس إلى استخدام عقولهم، بل تحضهم على تعطيل ما حباهم الله من ملكة التفكير.**

2. **تحسّن النظرة الرومنسية للدين تعذيب النفس وجلد الذات**، فهناك مثلا

**إن أصحاب الأديان الباطلة يرون في الغالب أنه من المقبول إلحاق الضرر بالأبدان، وبالإضافة إلى ذلك فهم يتصرفون باسم الدين. وبالتالي فهذه هي نتيجة الفهم الرّومنسي للدين.**



بعض الطوائف النصرانية التي يعتقد أفرادها أنهم يقتربون من عيسى بتعريض أنفسهم للصلب. وفي بعض الديانات الشرقية مثل البوذية يكتسب المرء قدسية بتجويع نفسه والرقاد في الأمكنة الخشنة، وسوى ذلك من ضروب التضحية بالنفس. أما في القرآن فلا وجود البتة لفكرة تعذيب المرء لذاته. والآية التالية تعبر بأسلوب بليغ عن هذا الفهم الرومنسي:

**﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس/ 44).**

صفوة القول، أن التعاطي الرومنسي مع الدين يغذي في الإنسان ميولا إلى تقديس الأفراد وتأليههم وإلى الطيش والتسرع والحنين المرضي إلى الماضي وتدمير الذات. إنه ببساطة نهج مزيف ومكون من معتقدات وممارسات لا تمت إلى الدين بصلة.

بدلا من السعي لمعرفة مراد الله من عباده وحمل النفوس على اتباع شريعته يفضل الناس اتباع ما ألفوا عليه آباءهم من معتقدات وأنماط سلوك وطرائق تفكير، فلا يسيرون حياتهم بتقييم الظروف التي تحيط بهم بشكل عقلاني بل يتشبثون بأنماط تقليدية من الفكر والسلوك. وهذا انحراف حذر الله منه مرارا في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله

تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾(المائدة/ 104)، وقوله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف/ 28)، وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (لقمان/ 21).

## خاتمـــة

إذا أراد المرء ممارسة الدين الذي يرضاه له الله، فلابد له أولا أن يخلّص نفسه من براثن الرومنسية. يقول الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (الحج/ 62). إن الله هو الحق والواقع وهي حقيقة لا يدركها إلا "الواقعيون". والذين استحوذت عليهم مثاليات الرومنسية إما أنهم متأثرون بأيديولوجيات منحرفة كالقومية الرومنسية والشيوعية، أو أنهم ضلوا سبيل الحكمة والهدى بتفسيرهم المثالي للدين، أو أنهم واقعون تحت تأثير فكرة الحب الرومنسي الذي نستعرض له بالتحليل في الفصل التالي من هذا الكتاب.

وحتى إن تسنى لهؤلاء الأفراد الذين يفكرون بهذه الطريقة البدء في ممارسة الدين فإنهم يفتقرون إلى الاستقرار العقلي الذي يمكنهم من استدامة هذه الممارسة وذلك بسبب الحالة الروحية المتقلبة التي تقودهم إليها الرومنسية. هناك أناس كثيرون يشرعون في ممارسة الدين تدفعهم إلى ذلك حفنة من الأفكار الرومنسية لكنهم سرعان ما يهجرون هذه الممارسة ويعودون إلى سابق حياتهم المجردة من الدين. لكن الله يخاطب البشر قائلا:

﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (مريم/ 65).

# الحكمة الحقيقية التي تنبع من الإيمان الخالص

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة/ 15–16).

وفيما يلي من صحائف هذا الكتاب سنحلل آثار الرومنسية في حياتنا اليومية. لكن لا بد لنا قبل الولوج في هذا الموضوع أن نفصل القول في معنى فكرة "الحكمة" التي أكثرنا من ذكرها فيما سلف من صفحات هذا الكتاب.

إن الفرق الجوهري بين الشخص الحكيم والشخص الذكي يعزب في الغالب عن الملاحظة، وهذا خطأ فادح. فكلمة "الذكاء" تستخدم بوجه عام في مجتمعاتنا ويراد بها الإشارة إلى مضاء العقل وهي جد مختلفة عن الحكمة. إن الحكمة هي صفة المؤمن الذي يستطيع إدراك آيات الله الخفية المبثوثة في الكون وما فيه من مخلوقات بما يتيح له فهم العالم الذي يحيط به، إلا أن أي محاولة للتعامل مع هذه الأشياء من خلال الاعتماد الصرف على قدرة العقل على احتساب النتائج والمقدمات، ستنتهي لا محالة إلى تصور ميكانيكي ضيّق للواقع. أما الذكاء فهو صفة المؤمن القوي الإيمان بربه، والذي يحيا وفق تعاليم القرآن. فالذكاء سمة فسيولوجية يمتلكها كل الناس مع اختلاف في أنصبتهم منها، إلا أن الحكمة صفة لا تكون إلا للمؤمنين. أما غير المؤمنين فلا نصيب لهم منها.

تتيح الحكمة للمؤمن استخدام ما عنده من ملكات العقل والمنطق استخداما راشدا. والشخص الذي لا حكمة عنده، وإن يكن ذكيا، لا يسلم من انحراف التفكير وفساد الحكم. ولو تتبعنا الفلاسفة غير المؤمنين عبر التاريخ فسنرى أنهم قد طرحوا أفكارا متباينة بل ومتعارضة أحيانا بشأن موضوع واحد. ورغم حقيقة أنهم أشخاص أذكياء إلا أنهم عُطْل من الإيمان وتنقصهم الحكمة مما يجعلهم عاجزين عن إدراك الحقيقة. والحق أن بعضهم قد أوقع البشرية في أخطا يأتي دونها الحصر. ولو نظرنا في التاريخ الحديث لوقعنا على شواهد كثيرة على ذلك. لقد أوقع مفكرون وفلافسة ورجال دولة لا ينقصهم الذكاء من أمثال ماركس وأنجلز ولينين وتروتسكي، أوقعوا ملايين من

البشر في أوخم الكوارث، وذلك لعجزهم عن استخدام عقولهم بكفاءة. فالحكمة ضمان للسلام والخير والسعادة، وسبيل إلى بلوغ هذه الفضائل.

يمكننا الذكاء، إلى جانب أشياء أخرى، من التفكير والتصور والتركيز والانتباه ومباشرة أنشطة عمليه. لكن إلى جانب هذه جميعا، يمتلك الشخص الحكيم فهما عميقا لا يوفره الذكاء بمفرده، ويستطيع بهذا الذكاء أن يميّز بين الحق والباطل. ولهذا فإن الشخص الحكيم يمتلك رؤية تسمو كثيرا على رؤية الشخص الذكي.

إن أصل الحكمة، كما سلفت الإشارة، عمق الإيمان بالله والخوف منه. والذين يتقون ربهم ويقفون عند حدوده يهبهم ربهم هذه الرؤية العلوية. إن هذه الحالة التي يشير الله إليها في القرآن بقوله:

**﴿مَا جَعَلَ اللّهُ من بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾** (المائدة/ **103**)

تنتج من افتقار معظم الناس إلى الإيمان الحق بعد أن أرخى ليل الكفر سدوله على حياتهم.

إن الحكمة التي آتاها الله من يخشونه بالغيب ويحيون وفق مبادئ القرآن تجعل المؤمن الحق أرفع من غير المؤمن بوجوه كثيرة. وإن أهم مكونات هذه الحكمة هي إدراك المؤمن لهيمنة الله الدائمة على كل الأمور ووعيه بحقيقة أن كل شيء

**﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾**
(الأنفال: **10**)

يأتي إلى الوجود وفق القدر الذي قدره الله تبارك وتعالى واستشعاره لمعية الله ورقابته في كل لحظة من لحظات حياته. بالإضافة إلى أن الحكمة تمنح المؤمن القدرة على التكيف مع تغير الظروف وتبدل الأحوال.

إن عمق بصيرة المؤمن وأصالة فكره وفطنته ووعيه وقدرته الفائقة على التحليل ونبل أخلاقه وقوة شخصيته ورصانة أفعاله وأقواله، كل أؤلئك مردود طبيعي لما أوتي من حكمة. (لمزيد من التفصيل حول هذا الأمر يرجى مطالعة كتاب: **الحكمة في نظر القرآن الكريم** لهارون يحيى).

تصور أن هذه المزايا الرفيعة التي وصفناها تنطبق على المجتمع بكامله. تصور المنافع التي تعود على مجتمع قوامه أفراد يفكرون قبل أن يقدموا على أي قول أو عمل. تأمل في وضع مجتمع يتسم أفراده بالحكمة. لا جرم أننا جميعا بحاجة إلى وجود أناس حكماء من حولنا لضمان راحتنا وصحتنا وأمننا وهنائنا. كما أن وجود الأشخاص الحكماء لا غنى عنه في منع الفوضى والاضطراب وفي إيجاد الحلول للمشكلات التي تنبت منها هذه الظواهر. ومن ذلك يتضح أن مفتاح الحل لأي مشكلة هو الإقرار بالحاجة إلى الحكمة.

لا ريب أن الحكمة هي أهم شيء يقتنيه الإنسان، وبالحكمة يستطيع الإنسان نفع الآخرين أكثر من غيره وذلك لأن الخلق الذي ينميه الإيمان في شخصية الإنسان، يجعل هدفه الأسمى هو إرضاء خالقه. ويبدي مثل هذا الشخص صفات المؤمن الحق التي وصفها القرآن في جميع أطوار حياته، فيدافع عن المستضعفين ويرفق بالمشردين ومن انقطعت بهم السبل والمحتاجين ويستشعر المسئولية عن إعلاء شأن العدل ولا يرضى أن يرى إنسانا تنهشه مخالب المسغبة. وتمكنه حكمته من تطبيق تعاليم القرآن في

حياته واستشعار مسئوليته الاجتماعية. إننا جميعا ننشد أمثال هؤلاء الناس الذين يسخرون عقولهم لتذليل المشكلات واتخاذ أنسب الإجراءات وفي اسداء النصح والتوجيه. وثمة خير كثير فيما يصدر عن هؤلاء الناس من قول أو عمل.

إن إدراكنا لأهمية الحكمة يجعل من السهل علينا إدراك الخطر الداهم الذي يشكله غياب الحكمة، وهذا الخطر يهدد كلا من الفرد والمجتمع بوجه عام ومن المفيد في هذا الصدد أن نمعن النظر في المشكلات التي ينشئها غياب الحكمة.

إن أحد أهم نواقض الحكمة هو الفساد الروحي الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق من هذا الكتاب، أعني الرومنسية.

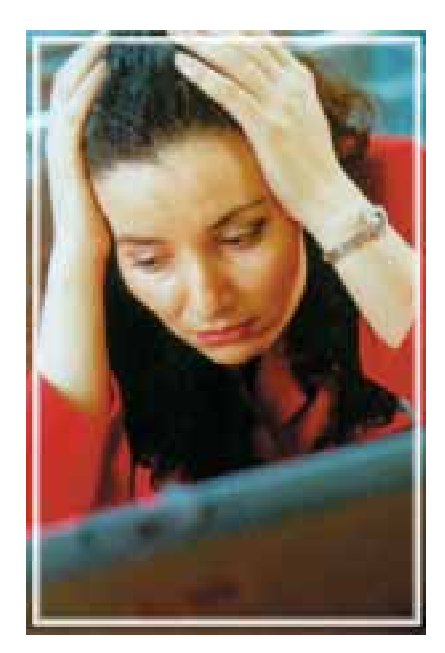
## ماذا تعني الرومنسية في الحياة اليومية؟

سبق أن قلنا إن الرومنسية هي أن يتصرف الشخص وفق ما تمليه عليه عواطفه لا وفق الحقائق التي يتوصل إليها باستخدام العقل والحكمة. والرومنسية داء روحي



**من العلامات المهمة على أن المرء ابتعد عن التوكل الوقوع في بوتقة الأحاسيس المختلفة مثل الحزن والتشاؤم والاعتقاد بأنه لا مخرج من حالة الكآبة. والحال أنه على الإنسان أن يثق في الله تعالى ويحسن الظن به مهما كان الوضع الذي هو فيه.**

متمكن من كل فرد من أفراد المجتمعات الوثنية والملحدة. ورغم تفاوت تأثير الرومنسية من شخص لآخر إلا أن بعض الأشخاص أكثر عاطفية من الآخرين. ولا سبيل لمن لا يأبه للقرآن ولا يكترث للدين أن يحمي نفسه من شرور الرومنسية. ولا سبيل لاجتثاث الرومنسية إلا بالتصرف بحكمة، أي بالتصرف وفق التعاليم الخلقية التي تضمنها القرآن، وذلك لأن من لا يحيا وفق هدى القرآن لا يمكنه استخدام عقله بفعالية.



**إن الإنسان الذي تغلب عليه المشاعر لا يستطيع أن يتخلص من الضيق والحزن أبدًا. وبذلك فهو يظلم نفسه بنفسه.**

رغم كون الرومنسية مرضا روحيا إلا أنها معيار شائع جدا في المجتمعات الجاهلة يحكم به على خيرية الإنسان أو عدمها. وقد أثرت على أغلب الناس في هذا المجتمعات إلى حد أصبح معه الأشخاص الذين يتسمون ببطء الانفعال العاطفي عرضة للاتهام بتحجر القلب وقسوة المشاعر.

هل يمكن للرومنسية أن تكون بريئة جدا وغير ضارة كما هو معتقد؟ لو أجبنا عن هذا السؤال بصدق فسنكتشف أن الرومنسية تفضي إلى مآلات وخيمة. وقد رأينا في الفصول السابقة من هذا الكتاب الآثار الواضحة للرومنسية على الصعيد الاجتماعي إلا أن لها أيضا آثارا مدمرة جدا على الحياة اليومية. والرومنسية هي أحد أهم أسباب معاناة بعض الناس وشكاواهم الناشئة من قضايا كثيرة يعجزون عن الإتيان بحلول لها.

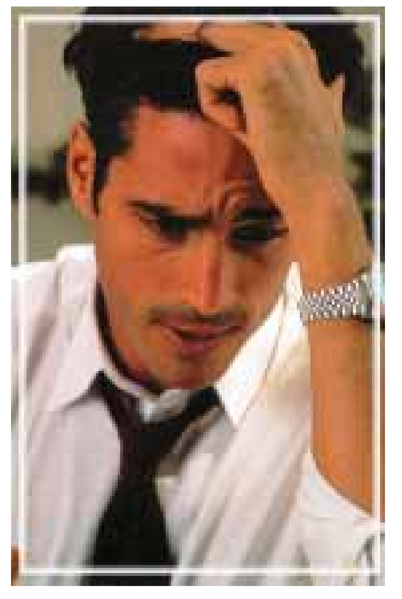
لكن ولأن حل جميع المشكلات والمخرج من كافة المضلات مبسوط في

القرآن، فإن المجتمعات التي تتخذ من القرآن منار هداية تنعم بجميع الفوائد التي تجلبها الحكمة: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ (**المائدة/ 15-16**).

اعتدنا منذ أيام يفاعتنا وإلى يوم الناس هذا على رؤية أشخاص لهم استعداد للبكاء لأي سبب، كأن يكون مثلا بسبب حادثة ظلم قرأوا عنها في الصحف أو رؤية شخص جائع على شاشة التفزيون. وحين نرى هؤلاء الناس يعبرون عن تعاطفهم مع الآخرين نفترض فيهم حياة الضمير، في حين أن مثل ردة الفعل العاطفية هذه لا تكون ذات قيمة إذا لم تتجاوز سكب العبرات وتوجيه الاتهامات. إن ما لا تعكسه ردة الفعل العاطفية هذه هو الاهتمام النشط والجاد بخير المحرومين ومعاناتهم، إذ يجد هؤلاء الأشخاص متعة في البكاء والتعاطف مع شخص مبتلى لكن لا يفعلون أي شيء لتفريج كربته. كما



**إن حالات التشاؤم وانعدام الأمل والحزن والاضطراب وغيرها من المشاعر هي أحاسيس يسببها الشيطان للإنسان في هذه الدنيا، ويتركه يتخبط فيها بلا خلاص. إن التوكل على الله تعالى يجلب الاطمئنان ويخلص الإنسان من جميع المشاكل.**



يفضلون -على مستوى اللاوعي- أن يحيوا في حالة من الرومنسية المجردة. ومن المثير أن هؤلاء الناس ينزعون إلى التشاؤم وفقدان الأمل والحزن واليأس والاكتئاب وغير ذلك من المشاعر السلبية التي أوقع الشيطان فيها بني الإنسان عن طريق الرومنسية.

لكن ثمة جانب آخر مهم في هذا الأمر يتعين النظر فيه، فلو كان على المرء أن يقترح عليهم أن ينهضوا ويفعلوا شيئا بدلا من الاكتفاء بذرف الدموع أمام شاشات التلفزيون لأنها لا تقدم ولا تؤخر، فسيحاولون الهرب من ذلك بانتحال الأعذار كأن يقولوا: "ماذا عسى أن نفعل؟" و "إنما أنا فرد واحد واليد الواحدة لا تصفق".

يفاقم الأشخاص العاطفيون من غلواء التشاؤم بأن يوحوا بأن هذه أو تلك مشكلة معقدة وتستعصي على الحل مما يدفع أمثالهم من الآخرين إلى إبداء ذات الشعور بفقدان الأمل.

إن كثيرا من السجايا الخلقية الحميدة تفقد قيمتها حين ترتبط بالرومنسية إلى حد يجعلها خطرة أحيانا. فالرحمة مثلا شعور أخلاقي حض عليه القرآن لكنه قد يساء استخدامه من قبل شخص عاطفي يبدي تعاطفا مع الظالم ويمتدح فعاله ويتقبل ظلمه وعدوانه. وفي مقابل ذلك لا يرى الشخص العاقل أي مسوغ لأي موقف أو سلوك أو فكرة ترتبط بالرومنسية، وذلك لأنه طالما تغلغلت هذه النزعة العاطفية في مسارب الروح فإن جوانبها الأشد خطرا قد تطفو إلى السطح في أي وقت بحسب الأحوال والظروف.

والآن يتعين علينا الإشارة إلى الفروق بين الرحمة والنبل وبين العاطفة. يبين الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم أن مشاعر الرحمة والنبل والسماحة تتجلى بأفضل صورها في أشخاص الرسل عليهم السلام. والرومنسية هي النقيض المباشر للموقف الأخلاقي الذي يمتدحه القرآن ويحض عليه. والمؤمنون ليسوا عاطفيين ولكنهم يتسمون

بنبل المشاعر وعمق الإنسانية. وبعبارة أخرى، الأنبياء أفراد متزنون ويتحلون بحكمة رفيعة ومزايا خلقية سامية. وقد تحدث الله في القرآن عن سموّ خلق نبي الله إبراهيم عليه السلام: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ**﴾ (**هود/ 75**).

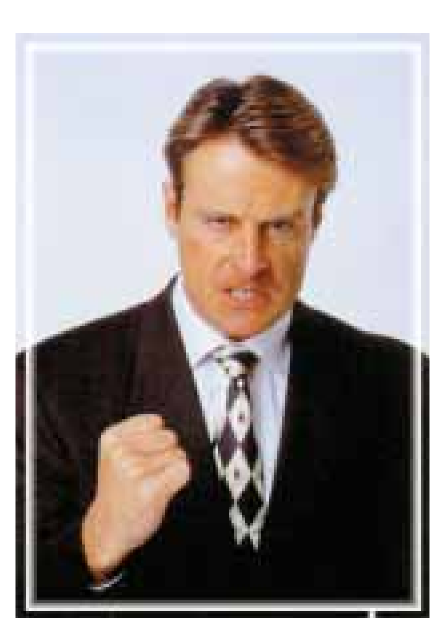
يجب أن لا ننسى أن الرومنسيين يكتفون بإبداء التعاطف مع الآخرين لكنهم لا يفعلون شيئا لإنقاذهم مما هم فيه. في حين يستفرغ الشخص الرحيم وسعه في إعانة الآخرين على تجاوز أزماتهم وحل مشكلاتهم ووالأخذ بأيديهم لتجاوز الصعاب. وهذه هي الرحمة الفعلية والحب الحقيقي.

## كيف تحجب الرومنسية نور الحكمة

لقد أودع الله في نفس كل إنسان مشاعر مثل الحب والرحمة والشفقة والخوف. وإن امتلاك هذه المشاعر هو الذي يجعل الإنسان إنسانا. وما نود التأكيد عليه هنا هو أنه كي يستتنى للمرء أن يحيا حياة روحية سعيدة ومتزنة فلا بد له من امتلاك زمام عواطفه وأن يوجهها وفق مقررات وهدى عقيدته وحكمته. فالحب مثلا وهبه الله للإنسان كي يصوب أكثر هذا الحب لله الذي خلقه من عدم وتكفل برزقه وبارك عليه ووعده حياة سرمدية دائمة السعادة، كما أن الحب عاطفة يتعين صرفها لمن يحبون الله ويحبهم الله، أعني

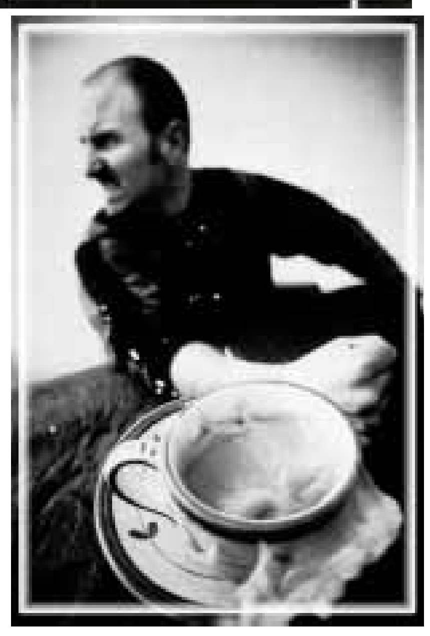
﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾
(آل عمران: 134)

المؤمنين. فيُحب الشخص لقربه من الله وخشيته له والتزامه بعزائمه. فكل صنوف الحب هذه توجه إلى الله وللأشياء التي تتجلى فيها صفاته. والمؤمن محرم عليه أن يواد أعداء الله وأعداء دينه.



كما وجه الله المؤمن إلى الخوف منه وحده دون غيره لأنه هو الذي بيده نواصي الناس والأشياء. فالحول والقوة جميعا بيد الله. وسنتناول شعور الغضب كمثال ثان، فالغضب شعور يشحذ مسئولية المؤمن تجاه إخوته في الإنسانية ويدفعه إلى مدافعة الظلم والتصدي لأعداء الله وأعداء دينه والوقوف في وجه الاستبداد والطغيان. إلا أن المؤمن حين يتصرف بدافع إحساسه بالمسئولية فإنه يفعل ذلك بذكاء واعتدال ونبل خلق. فالمؤمن شديد التوقي من الظلم ولديه نفور من القسوة والفظاظة وحب الانتقام ، أو كما وصف القرآن، لا يدفع السيّئة بالسيّئة.

لكن الشخص الذي يتصرف بدافع الشعور قد يغضب بسهولة للمصيبة الصغيرة تحل به، أو



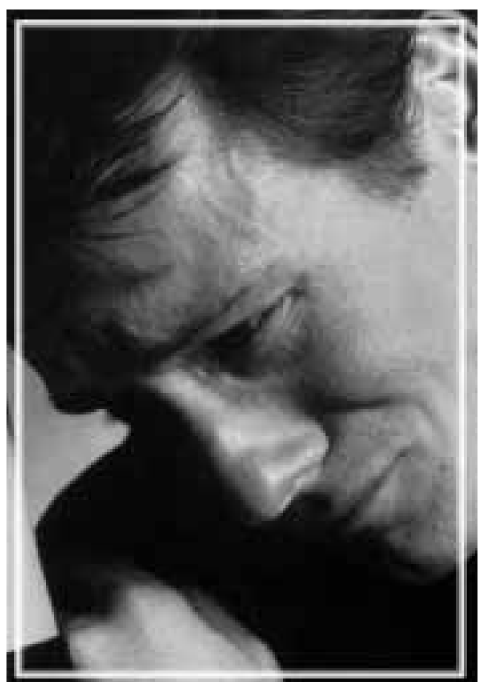
**إن الإنسان الذي يتخلى عن العقل ويُسلم نفسه للمشاعر سرعان ما يثور غضبا ويمتلئ قلبه حقدًا بل قد يلجأ إلى العنف. ولذلك فالإنسان المؤمن يكظم غضبه كما أمر الله تعالى، ويكون في جميع أحواله وسطًا.**



للمعارضة يجابهه بها شخص ما، وقد يشتعل غضبا بشكل مفاجئ. فالغضب الذي يملأ عليه أقطار نفسه يعمي بصيرته بل ويدفعه إلى التصرف بطيش ونزق.

وكما رأينا، **فإنه يتوجب على المؤمن أن يوجه العواطف التي حباه الله إياها وفق إرادة الله.** وبعبارة أخرى، يتعين عليه ألا يحب وألا يغضب وألا يخاف إلا على النحو الذي يريده الله، لأنه إن لم يفعل فما اتبع هدى الله الذي أنزله، بل انقاد لعواطفه وسلمها زمامه. وهو صنيع رديف للوثنية.

إنه حين لا توجه الحكمة هذه المشاعر المركوزة في فطرة الإنسان، ينجم شرّ الرومنسية فتغلب على سلوكه وحواره وتصرفاته وأفكاره ومقاربته للأمور بوجه عام. فإذا كان الأمر كذلك يخرج الإنسان من أقطار الحكمة ويلبس لبوس



**الناس العاطفيون هم الذين يبقون عاجزين عن فعل أيّ شيء ويكتفون بالنّدب والبكاء، يكثرون من الشكوى ويزعجون غيرهم بسلوكهم هذا. هؤلاء الناس يتكثف عندهم الإحساس بالشفقة على أنفسهم، حتى إنهم قد يجعلون من الموضوع البسيط سببا للبكاء والشكوى.**

الطغيان العاطفي. فالعاطفة تطمس ذكاء أمثال هؤلاء الناس وتعمي عقولهم، إذ ينزعون، دون أدنى اكتراث لهدى القرآن، للفناء في شخوص من يحبون، أو الفرق الشديد من رؤسائهم أو أزواجهم أو أي أحد من الناس، وربما تملكهم الغضب. ولن يسعنا طبعا أن نرجو سلامة التصرف وحكمته من شخص تتلبسه هذه الحالة الروحية لأن الحكمة عنده وعند أمثاله تكون قد رانت عليها سحب كثيفة من العاطفة المنفلتة.

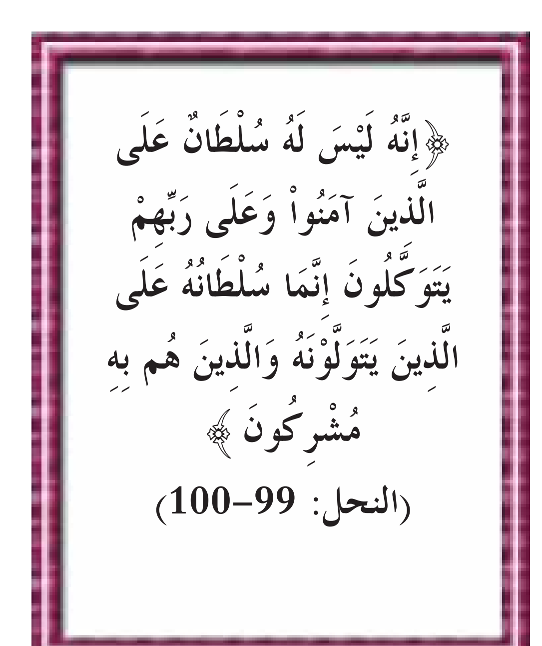
إن الرومنسية تنزع عن الإنسان لباس الإحساس بالواقع، وتتجلى أبرز سمات الشخص العاطفي في رغبته في العيش في عالم منبت الصلة بالواقع فهو شخص يعيش في عالم من الأحلام والخيالات، ولهذا تتعذر محاورته أو إسداء النصح إليه، أو مشاورته لأنه لا يهتدي إلى رشد ولا يقبل نصحا. **والحق أن الرومنسية نوع مخفف من الاضطراب العقلي الذي يسميه الأطباء النفسانيون "الشزوفرينيا"** (ينقطع المصابون بالشزوفرينيا عن الواقع ويعيشون في عالم من صنعهم هم).



ويمكن ملاحظة الشخص العاطفي في شخص يبكي وهو يشاهد فيلما تلفزيونيا، فهذا

المشاهد منفصل تماما من الواقع بدرجة تدفعه إلى إبداء الحزن والبكاء لمعاناة أحد الممثلين في الفيلم رغم حقيقة أن هذا الممثل يتقاضى أجرا عن أدائه لدوره في الفيلم، وقد تكون حياته الفعلية زاخرة بألوان البؤس الخلقي. وهذه حالة يأنف الشخص الحكيم من المصير إليها، كما أنها تظهر لنا إلى مدى يمكن للعقلية الرومنسية أن تصرم أسباب التواصل بين الشخص والواقع، وكيف تقحمه في لجج التفكير غير السوي الذي يتبدى على صفحة حياته اليومية.

إن الحقيقة الماثلة لأعيننا هي أن الكثرة من الأشخاص العاطفيين يقنعون بالجلوس والتفرج على مسار الأحداث من حولهم دون أن يحركوا ساكنا. إذ يقنعون بالبكاء والعويل والتشكي بدلا من مواجهة الوضع الذي يكرهون. فمثلا، قد يسمع الواحد من هؤلاء أن أحد أقاربه قد تعرض لحادث سير، لكنه بدلا من إحسان الظن بالله والأمل في أن تتفتق هذه المحنة عن منحة، وبدلا من التفكير في طريقة لمد يد العون للمصاب، فإنه يصاب بالإغماء ويشرع في البكاء. فهو لا يسأل عما قُدم للمصاب من مساعدة أو إن كان قد جرى استدعاء الطبيب أو أن ثمة قدرا كافيا من الدواء، فهو لا يتحرك للمساعدة بل يتطلع لتعاطف الناس معه هو كأنه هو المصاب.



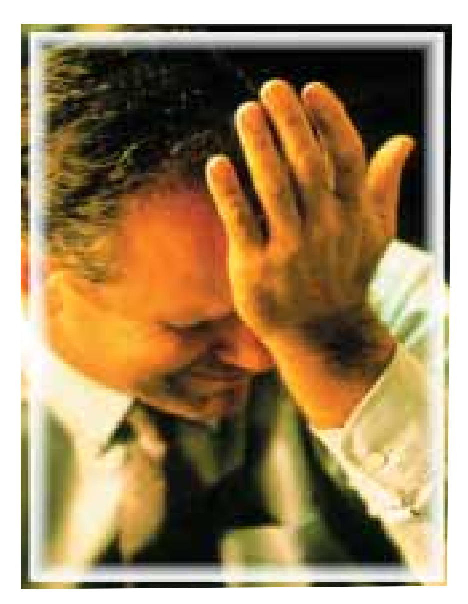

أو إن أصيب شخص قريب منه بعلة مفاجئة، فبدلا من إسعاف المريض واستدعاء سيارة الاسعاف، فإنه سيركض ببله حول المكان محدثا جوا من البلبلة

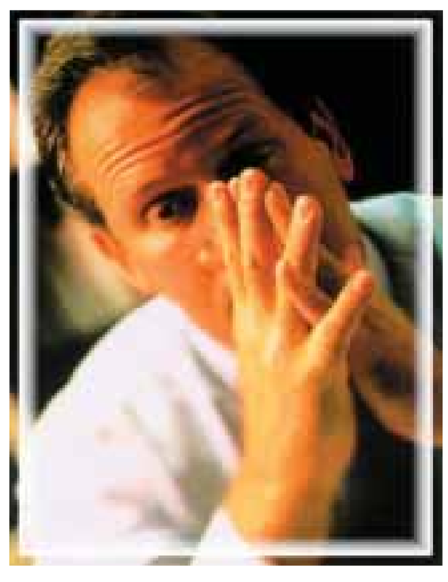
والاضطراب بتصرفه الغبي هذا. ولو سأله شخص عما يحدث فلن يستطيع جوابا لأن العاطفة التي تقمصته تحول بينه وبين استخدام عقله وتعزله عما حوله من البشر.

أو إذا أصيب هو نفسه بمرض، فإنه يعلم أن ثمة مشكلة ما لكنه يتحاشى الذهاب إلى الطبيب فرقا من أن يخبره الطبيب بخطورة حالته. إنه لا يود أن يفقد جو السعادة الذي يحيا في رحابه، ولذا فهو غير راغب في تشخيص حالته المرضية، فيفوت بذلك فرصة الشفاء من دائه.

إننا نستطيع ضرب العديد من الأمثلة لهذا السلوك العاطفي غير الرشيد لنبيّن كيف أن هذا السلوك غير العقلاني يفضي إلى مآلات ضارة قد تكون أحيانا مسألة حياة أو موت. إن الشيطان يدفع أمثال هؤلاء الناس إلى الانزعاج بما يحدث حولهم بشكل يفقدهم القدرة على التصرف ويجعلهم هم بحاجة إلى العون والعزاء. ولو أنهم إذ واجهتهم هذه الحوادث تعاملوا معها بحكمة واتخذوا حيالها ما يلزم من قرارات، لانجلت هذه الحوادث ولخرجوا منها سالمين غانمين.

وهكذا نرى أن الأشخاص العاطفيين يعجزون





**من أهم خصائص الشخص العاطفي بقاؤه عاجزاً عن حل المشاكل التي تعترضه في حياته، وهو يسارع إلى الوقوع في حالة من اليأس. أما الشخص الذي لا تحركه عواطفه بل يتحرك وفقا لما يليه عليه عقله، ويكون متوكلا على الله تعالى فيمكنه أن يوجد لكل مشكلة عددًا لا يحصى من الحلول.**

عن تسخير قدراتهم العقلية لإيجاد حلول لما يعترض سبيلهم من مشكلات ولا يمكنهم قيادة الآخرين لأنهم هم أنفسهم بحاجة إلى من يقودهم ويرعاهم ليكونوا بذلك عبئا على الآخرين.

وفي القرآن الكريم يبين الله تعالى الشقة بين هؤلاء الناس والمؤمنين:

**﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** (**النحل/ 76**).

إن المؤمنين لا يتعاملون مع الحوادث والأشياء بعواطفهم، بل يشهرون في وجهها سيوف الحكمة و"يأمرون بالعدل"، كما تشير الآية أعلاه، أي أنهم يحرصون على أن تعامل الأمور بشكل لائق وصحيح. وما ذلك إلا لإيمانهم الجازم بأن ما ينزل بهم من حوادث قد سبق به القدر وأنه لا حول لهم ولا قوة إلا بالله. وهكذا فإنهم لا يجاوزون حد الاعتدال وذلك بفضل خضوعهم لخالقهم وثقتهم به. إنه لا تستفزهم الحوادث فتفقدهم صوابهم ولا يجد اليأس والتشاؤم إلى نفوسهم سبيلا لأنهم مؤقنون بأن الله سيجعل بعد العسر يسرا.





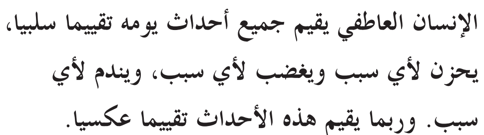
لو أنك رغبت في تنبيه شخص عاطفي لما يشكله انسياقه وراء عواطفه ومشاعره من خطر على حياته الروحية، لما أصغى إليك، بل لن يخطر له ابتداء أن يتنبه لما تقول. إن عقل الشخص العاطفي مغلق في وجه أي رأي أو اقتراح مخالف لموقفه أو رأيه بدرجة تجعله يشعر على الفور بأنه يعامل بشكل سيّء فيتبرم ويتسخط أويشرع في البكاء أو ينكفئ على ذاته. وهكذا فإنك لا تستطيع انتقاد الشخص العاطفي فضلا عن أن تبذل له النصح والمشورة.

إن غلبة الشعور والعاطفة تجعل الشخص سريع الانفعال يرى في كل تصويب أو توجيه أو نصح انتقاصا من قدره وجرحا لكرامته، ولذلك يتوجس هؤلاء الناس خيفة من أن ثمة معان خفية في كل ما يقال لهم، فيسارعون إلى سوء التفسير والتهويل والمبالغة. ثم يظهرون احتجاجهم ويمسكون عن الكلام بدون توضيح وينزوون وعلى وجوههم سيما غضب طفولي. ويصعب عليهم ممارسة النقد الذاتي أو تصحيح أخطائهم لعجزهم عن التفكير العقلاني أو لخوفهم من مواجهة الواقع. وكما أسلفنا القول فإن أصحاب هذه النفسية من الأشخاص يرون في كل كلمة تقال لهم انتقاصا من قدرهم وظلما لهم فينزعجون ويصيبهم اليأس ويتقوقعون في ذواتهم. ويتحدث الله في القرآن عن مثل الشخص الذي يختار الشقاء لنفسه:

**﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ (الأعلى / 10–11).**







**الإنسان العاطفي يقيم جميع أحداث يومه تقييما سلبيا، يحزن لأي سبب ويغضب لأي سبب، ويندم لأي سبب. وربما يقيم هذه الأحداث تقييما عكسيا.**

إن تعطيل هؤلاء الناس لقواهم العقلية وانسياقهم وراء عواطفهم يقضي على ما لديهم من حكمة شيئا فشيئا. وإنهم إن لم يصلحوا من أمرهم فلا سبيل لهم لإدراك روح الدين وجوهره أو العيش وفق مبادئه ومقرراته. ومثلما أوضح النبي صلى الله عليه وسلم فإنه "**لا دين لمن لاعقل له**" أو كما قال عليه الصلاة والسلام. والشخص العاطفي العاطل عن الحكمة لا يمكنه إصدار أحكام سليمة ولا يستطيع التفكير بشكل مستقر ومتماسك. إن أوضح الأشياء بالنسبة إلى المؤمن تمثل للشخص العاطفي متاهة ملؤها الغموض والتضارب. فهو يصارع بنفس قد تملكها الخوف. ولا يمكن للشخص العاطفي كذلك أن يدرك معاني القرآن، والتي هي منارات هداية لمن أوتوا الحكمة، ولا يعتبر بها. إنه لا يقدر الله حق قدره ولا يفهم الحكمة المستترة في كل ما يجري على صفحة الكون من حوادث، ولا يسعه إدراك أسباب وجود العالم، ولا النار والجنة. إنه لا يدري معنى لا إله إلا الله. وإن كل فكرة تجول بخاطر مثل هذا الشخص، وكل نواياه

وأغراضه وجميع فعاله تأخذه من وثنية إلى أخرى.

وهذه هي إحدى الوسائل التي يستخدمها الشيطان ليجتال الناس بها عن سبيل الله. وفي القرآن يحذرنا الله أن الشيطان لن يألوا وسيلة تتاح له ليسوق بها الناس إلى نار جهنم:

**﴿ "لَّعَنَهُ اللهُّ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِّ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللهِّ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا" ﴾** (**النساء: 118–119**)

إن من يدرك معنى هذه الآيات لا يترك للشيطان مدخلا إلى نفسه، ولا يعلق بحبائل العاطفة، بل يستعين بحكمته على رؤية الواقع بجلاء ثم يتصرف باتزان وعدل وفق ما يرى. وفي مقابل ذلك ترى الواقعين في شراك الرومنسية وقد اطرحوا عقولهم وأسلموا قيادهم لإرادة الشيطان وغروره، ولا يزالون في سير قاصد عبر لجج الوثنية الكئيبة صوب الشقاء الأبدي.

# أنواع الرومنسية

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ منَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا منْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلاَّ الذينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (هود/ 9-11).

تطرح الرومنسية على العقل حجابا كثيفا وتجعل صاحبها صيدا سهلا للشيطان. ويستخدم الشيطان أداة الرومنسية ليهدي المحرومين من نعمة الدين من الناس والمجتمعات إلى مختلف ألوان الفساد والانحراف. وقد عرضنا في القسم الأول من هذا الكتاب بعض الأمثلة لاستراتيجية الشيطان ورأينا كيف استغلت أيديولوجيات مثل القومية الرومنسية والشيوعية مبدأ الرومنسية لتقود الناس والمجتمعات إلى الدمار.

إننا نشاهد في حياتنا اليومية ألوانا شتى من الرومنسية. وسنعرض في الصفحات التالية إلى الأنماط الرئيسة للرومنسية.

## والحزن التشاؤم

ركز الله في طبيعة البشر ميلا وكلفا بالجمال ورغبة في العيش السعيد الهانئ، ولهذا فإن من الطبيعي أن يرغب الإنسان في التخلص من الأوضاع الكريهة أو في تحويلها إلى أوضاع محببة بأسرع ما يمكن. والحق أن راحة البال وسلامة الروح عوامل مهمة لصحة العقل والجسد. لكن الناس حين يصدرون عن مشاعرهم ورغباتهم وأهوائهم، وفي غيرما اكتراث لتعاليم القرآن، فستطحنهم مشاعر الحزن والخوف والقلق. فحين لا يدرك المرء طبيعة القدر ولا يستوعب معنى أن يكل المرء أمره لله ويخضع لإرادته خضوعا كاملا كما علمنا القرآن، يغدو في حالة من الصراع المستمر مع القلق الناشئ من جهله بما سيحدث له أو لمن يحيطون به في أي لحظة. في حين أنه إذا عاش حياته وفق منهج الله وطبق الشريعة التي جاء بها القرآن، فإنه سيكون بمفازة من هذا القلق وما عداه من مشاكل. وقد بين الله هذه الحقيقة بواسطة رسله وذلك بقوله:

**﴿... فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه/ 123–124).**

كما تبين الآية أعلاه، فإن كثيرا من الناس يعرضون عن آيات الله فتستحيل حياتهم بسبب ذلك إلى شقاء وتعاسة. وفوق ذلك، وطالما أنهم يعتقدون أن الصدفة هي القانون الذي يحرك الحياة فإنهم يضيقون ذرعا بما يصادفهم من عقبات على الرغم من أن ثمة احتمالا أن تنطوي هذه الحوادث غير السارة على فوائد ومنافع لهم. إن أذهانهم مشغولة أبدا بهاجس الخوف من فقدان الوظيفة والسقوط في وهدة الفقر، وبهاجس الخوف من الخداع والمرض. فإن طمعوا في المجد خافوا أن تنالهم سهام السخرية، وأن تطلعوا إلى الوفاء خشوا أن يقابل وفاؤهم بالعقوق. وتتقمصهم حالة من التشاؤم حين تلوح لهم إمكانية تلقيهم أخبارا غير سارة في أي لحظة، أو أن تمتد إليهم يد شخص ما أو لسانه بالأذية والضير. بل تراهم في غمرة سعادتهم مهمومين قلقين لاعتقادهم أن لحظات الفرح لا تدوم. إن حياتهم بهذا الوصف كابوس حقيقي. ويبين الله في إحدى آيات القرآن مقدار القلق والضنك الذي يحس به الذين لا يلقون للقرآن بالا:

**﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام/ 125).**

لا غرابة في فقدان المحرومين من نعمة الدين للشعور بالأمن وراحة البال، وذلك لأنهم يخالطون أشخاصا تجردوا من أخلاق القرآن، كالحنان والرحمة والإيثار والوفاء والتضحية والتواضع. إن الشخص العاطفي يتأذى من العيش في بيئة تزخر بالغش والأذى، ولا يمد أهلها أيديهم بالعون للآخرين إلا بمقابل مادي، ولا تنبت صداقة إلا على تربة المنفعة، ولا تبدر فيها من أحد غلطة إلا ووجه بالغضب والسخط، بيئة يسودها الظلم وتنتصب فيها سوق الغيبة والنميمة والخداع. لكن إذا حدث أن تيسر للشخص العاطفي العيش في بيئة تلائمه ما كان ثمة تغيير يذكر، فهناك على الدوام ما يزعجه ويضايقه.

فسواء كان الطقس حارا أو باردا أوكان ممطرا أو عاصفا، فإن هذا الشخص العاطفي دائم التبرم والضيق، وما ذلك إلا مصداقا لقوله تعالى:

﴿ **فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ** ﴾ (**التوبة/ 82**).

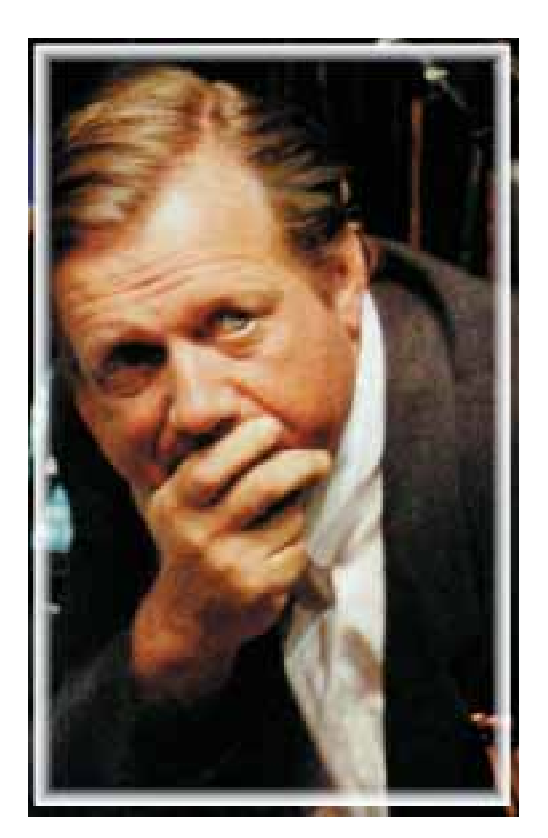
وفي آية أخرى يبين الله سلوك الكفر بأنه:

﴿ **إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا** ﴾ (**المعارج/ 20**).

إن جريان الرياح بما لا يشتهي المحرومون من الإيمان هو سبب آخر مهم للتعاسة التي تكتنفهم. فقد تعد امرأة رومنسية وجبة لزوجها ثم تتلبسها حالة من الحزن إن لم تسمع من زوجها إطراء ومدحا لجودة طبخها. والأمثلة على هذا الضرب من السلوك كثيرة.

إن الشخص الذي يقيّم وضعا ما بشكل سطحي ويتعامل معه بعاطفية لا يمكنه إدراك حقيقة أن هذه المحنة التي ألمت به قد تتحول إلى منحة في نهاية الأمر. هب مثلا أن شخصا ما غضب لأنه لم يدرك حافلة كان يريد أن يسافر فيها إلى جهة ما ، فمن أدراه أن هذه الحافلة قد تتعرض لحادث سير بعد لحظات من تحركه؟ فلربما شاء الله له أن لا يلحق بالحافلة حتى ينجو من حادثة السير هذه. يتسخط الناس ويندبون حظهم إن أصابهم مكروه أو جرت الأمور على غير ما يتمنون، في حين أن من الخير جريان الأمور على هذا النحو لأن القدر قد سبق بذلك. فلو كشف الله لهم حجب الغيب فأراهم حقيقة ما يسمونه سوء حظ لتبين لهم أن حزنهم لم يكن تصرفا رشيدا، ولعلى وجوههم البشر والحبور.

عليه فإن من العقل أن يؤسس المرء حياته على الخضوع لإرادة الله. وإن المؤمنين الذين لديهم هذا الوعي يحيون في بحبوحة من الأمن وراحة البال، ينتظرون ما يتكشف عنه القدر برضا وهدوء كمن يشاهد فيلما.



**الشخص الذي يتوتر بسرعة ويغضب بلا سبب ويصيح بطريقة مبالغ فيها والذي يُقدم على إلحاق الضرر بنفسه أو بالآخرين كلها مؤشرات وعلامات تدل على أنّ هذا الشخص يتحرك بعواطفه وليس بعقله.**

يظن كثير من الناس أنه لا سلطة للقدر في حياتهم إلا في مسألتي الميلاد والموت وساعته المحتومة. إنهم يظنون أن الأمور تجري على سنن المصادفة المحضة ولا ارتباط لها بالقدر. وهو وهم يدفعهم إلى التمرد على اختيار الله لهم، ويسلمهم إلى مشاعر اليأس والسخط. ولهذا فإن عمر السرور الذي يجده العاطفيون من الناس قصير جدا، وذلك لأنهم في غمرة سعادتهم يتذكرون حادثة محزنة فيرتكسون ثانية لتعاستهم الكئيبة. وهؤلاء الناس لن يكون مآلهم في الآخرة بأحسن من حالهم في الحياة الدنيا:

﴿**قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ**﴾ (**المؤمنون: 106**).

صحيح أن الله قد يختبر عباده بشيءٍ من ألوان المعاناة في الحياة الدنيا، إلا أن المؤمن الحق لا يستسلم لمشاعر اليأس والحسرة والتشاؤم ولا يتصرف بعاطفية إذا طوقته مثل هذه الهموم. فهو يعلم أن الله يريد أن يرى كيف يصنع ساعة المحنة، كما يعلم أن الحل لا يتمثل في البكاء والعويل. بل يكمن الحل في التضرع وطلب العون من الله: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾ (**النمل/**

**62**). فهو واثق من أن فرج الله قريب وأن دعاءه مستجاب وقد وعد الله عباده المؤمنين في القرآن بما يلي:

**﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الذين آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ (يونس/ 62–64).**

فحكمة الله تعالى كثيرا ما تختفي وراء أحداث تبدو لنا شرا وبلاء. وهكذا فإن الإيمان والرضا بقضاء الله وقدره يفرغ في النفس السكينة والهدوء. أما الرومنسية فإنها تحجب الناس عن إدراك حقيقة أن أمرهم كله بيد الله تعالى، وتجعلهم يتعاملون مع الأمور بفرح غامر أو حزن جارف. ويبين الله في القرآن أن هؤلاء الناس مذبذبون بين اليأس والغرور، وأن الفرق بينهم وبين المؤمنين هو:

**﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَـئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾**
**(هود/ 9–11).**

## سرعة الغضب

يبدو فرط العاطفة عند النساء في صورة حزن وتشاؤم وبكاء وكثرة تشكي، أما عند الرجال فيتمثل في سرعة الغضب والسلوك العدواني. فإن وجد الشخص العاطفي مثلا أن شخصا ما قد أوقف سيارته في المكان المخصص له في موقف السيارات، فإنه يشرع في الصياح وركل السيارة المعتدية برجليه. ومثال ذلك أيضا إذا حدث وأن اصطدم به شخص خطأ وهو يمشي في الطريق فإن ثائرته تثور ويستشيط غضبا. ومن

الناس من لا يملك نفسه من الغضب والانفعال الشديد إذا نسي المفتاح داخل بيته أو تعطل في الطريق بسيارته بسبب ازدحام حركة المرور فيطلق للسانه العنان ويلفظ بما بدا له. وهكذا يتعامل الشخص العاطفي بانفعال زائد مع مشكلات لا تثور لها ثائرة الشخص العقلاني. وفي الغالب فإنه لا يؤذي بذلك أحدا غير نفسه.

إن الغضب الرومنسي لدى الرجال يتجلى في حالات كثيرة، وقد أصبح في بعض المجتمعات سمة تميز الشباب، وقد أصبحت حالة نفسية تعرف في هذه المجتمعات بـــ"**ثقافة الشباب**". وهي ثقافة تقوم على الغضب والرومنسية الزائدة. وأكثر من يحملون هذه الثقافة تتميز شخصياتهم بعدم التوازن، فهم يمكن أن ينفعلوا في أية لحظة ولأدنى سبب، بل يمكن أن يهجم على غيره فيثخنه جراحا أو يودي به إلى المستشفى أو حتى يرديه قتيلا. والغريب أن الشخص الذي يهاجمه قد يكون غريبا عنه لم يره من قبل على الإطلاق. والصحف مليئة بهذه الحوادث والجرائم.

فالشخص يمكن أن يبدأ مساءه في غاية السعادة، وفجأة تنتابه موجة من الانفعال فيهجم على أصدقائه وأقربائه ويشبعهم ضربا. وهناك منهم من يكون في الطريق، وبمجرد أن يشك أن أحدا "ينظر إليه شزرا" يهجم عليه ويُعمل فيه السكين. ولا ريب أن قتل إنسان بغير حق من أكبر الجرائم عند الله تعالى.

إن سرعة الغضب والانفعال بركان يمكن أن يثور في أي لحظة، ويمكن أن يتمخض عن عواقب وخيمة.

فالإنسان العاطفي يثور لأدنى حركة يعتبر أنها خطأ بحقه، ويمكن ان يلحق الأذى بإنسان لا يعرفه لا لشيء إلا لأنه اعتبر نظرته إليه غير بريئة وتحمل مشاعر العداوة إزاءه. وأوضح الأمثلة اللاعقلانية هذه يتجلى في السلوك البهيمي الذي يبدر من بعض مشجعي فرق كرة القدم عند نهاية مباراة ما، إذ يعتدي هؤلاء على أشخاص لا يعرفونهم اعتداء

يكاد أن يؤدي بحياتهم. ويستعملون في ذلك شتى الوسائل من السواطير والسكاكين والهراوات. لقد طمست الرومنسية الشيطانية عقول هؤلاء الناس وضمائرهم فغدوا وبالا على المجتمع. لكن الله يرشد المؤمنين إلى اجتناب مكائد الشيطان ليفوزوا بهناء العيش وراحة البال:

**﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (البقرة/ 208).**

ومن الضروري أن نفرق هنا بين فرط العاطفة والعقلانية. إن شعور الشخص بالغضب والشحناء حيال ما يلقى من تصرفات قاسية وشرور تجعله أكثر وعيا بقيمة العدل والسلام والخير وتدفعه إلى بذل الوسع في القضاء على هذه القسوة والشرور، صونا لحقوق الأبرياء والضعفاء. وهذا الشعور الذي منحه الله تعالى للإنسان يتبغي أن يحكمه العقل وتوجهه الإرادة حتى لا يكون وبالا على صاحبه فيغالي حيث يتوجب الاعتدال. ويعجز

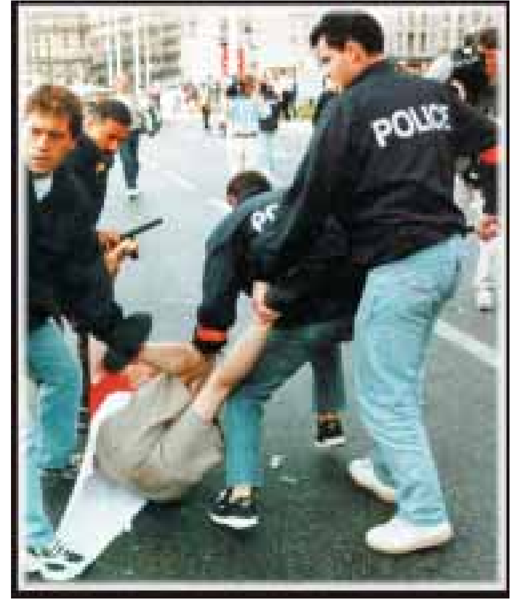




**تمثل المناسبات الرياضية وبشكل خاص كرة القدم مناسبة تتضخم فيها المشاعر العاطفية. وفي هذه الحالات يصبح كثير من الناس تحت سيطرة عواطفهم. وبسرعة يمكن أن يغضب الشخص أو يشن هجوما عدوانيا، أو يجهش بالبكاء. وفي أغلب الأحداث يفقدون التحكم في تصرفاتهم فيلحقون الضرر ببعضهم البعض.**

الأشخاص الذين لا يمتلكون إرادة قوية وحكمة عاقلة عن كبح جماح عواطفهم، كما يغدون هدفا سهلا لغواية الشيطان وتضليله. ويحذر الله المؤمنين في آية أخرى من الشيطان فيقول:

**﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا**








وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور/ 21).

## عاطفة الرحمة الشيطانية

إن الأشخاص الذين تنطلي عليهم مكائد الشيطان قد يستخدمون ما وهبهم الله من مشاعر الرحمة بطريقة منحرفة. وإن تصور معنى الرحمة المناقض لإرادة الله إنما هو شعور شيطاني بالرحمة. إن الأشخاص العاطفيين لا يتخذون من القرآن معيارا للرحمة، بل يقتدون في ذلك بانفعالاتهم هم، وهذا هو سبب انحراف فهمهم لهذه الأمور.

فبعض الناس مثلا يتأثرون جدا للألم يصيب شخصا آخر أو لموت طفل صغير أو حيوان برئ لطيف، لكن هنا تتجلى الرحمة الشيطانية فتقود الإنسان إلى التمرد على الله والتجديف عليه. أما الشخص الحكيم فلا يغشاه مثل هذا الشعور الضال لأنه لايرى في الموت خطرا ماحقا بل يعده وسيلة لتقريب العبد من ربه.

إن المؤمن يقيس الرحمة والعطف بمعيار الخير الذي تجلبه في الدار الآخرة. فقد تقتضيه الرأفة التي يشعر بها تجاه مؤمن آخر أن ينتقده أو يصحح خطأه رغبة في نفعه في الدنيا والآخرة. وهذه هي الرحمة الحقيقية. أما غض الطرف عن أخطاء الآخرين أو مساعدتهم على ارتكابها رغم احتمال أن تلقي بهم هذه الأخطاء والجرائم في نار جهنم في يوم القيامة ، فهي قسوة وتجرد من معاني الرحمة والشفقة. ومن الأمثلة على ذلك الام أو الأب الذي يمنع ولده من الصيام بدعوى أنه "لا يتحمل الجوع والعطش" بالرغم أنه بلغ السن الذي يمكنه من أداء هذه الفريضة. ومن العواطف الشيطانية كذلك أن الواحد يكون عنده أحد من أقاربه أو ضيوفه فلا يوقضه لصلاة الصبح في وقتها حفاظا على راحته وحرصا على عدم إزعاجه.

إن الرحمة التي تميز عباد الله المؤمنين لا تغفل عن مراعاة مصلحة الآخرين

ومصيرهم عند الله تعالى، فهي رحمة ينبغي أن تكون مقرونة برضاء الله. فمن مقتضيات الرحم في بعض الأحيان أن يتوجه المؤمن إلى غيره بالنصيحة والإرشاد وربما وجب في حقه اللوم والتقريع، فلا يصح ان يراه يرتكب إثما أو باطلا فلا يحرك ساكنا ولا تثور في داخله مشاعر الرحمة خوفا عليه من عذاب الله. في مثل هذه الحالات عليه أن يتذكر ماورد في القرآن الكريم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إن هذه هي الرحمة الحقيقية. فالمؤمنون قد ينطلق منهم ما يغضب غيرهم من كلام النصح واللوم وذلك لعلمهم بشدة العذاب الذي يمكن أن يلحق هؤلاء يوم القيامة. ولذلك فإن أحب الناس إلى الله هم الذين يتبعون الأخلاق الفاضلة ويأمرون غيرهم باتباع الرشد والهدى، وهم من بين الذين وعدهم بالجنة وحسن المآب. ويجب أن لا ننسى أن القسوة الحقيقية هي اللامبالاة بما يقترفه غيرنا ممن نسوا الآخرة من آثام وخطايا والاكتفاء بدور المشاهد السلبي.

إن الرحمة الشيطانية تسبب الظلم وتقود إلى الباطل. فالمؤمن الحكيم يتحرك وفق ما يمليه عليه إيمانه وتبعا لما أمر به ربه، أما الإنسان العاطفي فتسيطر عليه مشاعر الرحمة الشيطانية فيتصرف ليرضي شعوره هو وإن بدا أنه يتصرف من منطلق روح التضحية. وعندما يوضع في أحد المواقف الصعبه فإنه لا يقيس ما يفعله بمقياس الحق والباطل ولا بمقياس العدل والحكمة، والأهم من هذا كله لا ينظر إلى الأمر بمنظار موازين القرآن وأحكامه بل تحركه كتلة من المشاعر الجاهلية. وهكذا يمكن أن يردي نفسه ومن حوله في المخاطر والمهالك بسبب التقييم الخاطئ للأمور والقرارات غير الحكيمة التي يتخذها تبعا لذلك. فبعده عن موازين القرآن تجعله يتوهم أنه تعامل مع الأمور بدافع الرحمة، ولكنها رحمة شيطانية.

إن الظلم والشعور الشيطاني بالرأفة قرينان لا يفترقان، وإن الأنانية هي من أبرز

سمات الشخص العاطفي. فهو يعتقد أنه يتصرف من منطلق التضحية بينما الحقيقة أنه يلبي حاجات نفسية بداخله. ولهذا فإننا لا نتوقع من الشخص العاطفي أن يتصرف بعدل. فهو يجور في الحكم إن وجد نفسه إزاء وضع يضر بمصالحه أو مصالح شخص أثير لديه. فهو لا يمكن أن يكون شاهد صدق إذا طلبت منه شهادة، وقد يجنح إلى إخفاء الحقيقة إذا تعلق الأمر بالشهادة ضد أحد أقربائه.

أما المؤمن فمن أهم صفاته العدل، وقد أمر الله الناس جميعا في القرآن أن يحكموا بالعدل والقسطاس المستقيم، ليس فقط في حق أصدقائهم وأقاربهم، بل أيضا تجاه أعدائهم وخصومهم:

**﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾**

(**النساء/ 135**).

وفي آية أخرى يدعو الله الناس ليكونوا شهداء بالحق بقوله:

**﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا... ﴾** (**المائدة/ 8**).

غير أننا يجب أن نعرف أنه من غير الممكن أن ينفذ المؤمن هذا الأمر الوارد في الآية الكريمة تنفيذا كاملا لا نقص فيه. فالضعف الإنساني سمة لا تنفك عن الإنسان ومهما غالب الواحد منا نفسه فهو يبقى محكوما بسيطرة العاطفة إلى حد ما، وخصوصا فيما يتعلق بنفسه أو بأقربائه أو بمن يحبهم. فهو يمكن أن يحابي أو يغض الطرف أو يحيد عن قول الحق.

## الشعور بالامتنان

إن الامتنان أو "الشكر" هو أحد أقوى المشاعر التي يحسها الإنسان، فالإنسان منذ الولادة وفي مراحل حياته كلها في حالة تلق مستمر للنعم. ويميل الإنسان بطبعه إلى التوجه بالشكر والامتنان إلى مصادر هذه النعم. لكن الله يبين في أكثر من موضع في القرآن أن الله هو المستحق الأول للشكر والحمد. وفي الحقيقة فإن الله تعالى هو مصدر هذه النعم كلها، بيد أن الأسباب الموصله لهذه النعم تختلف وتتعدد، فالاعتراف بالمنة والشكر يبقى لله وحد، ويكون نابعا بصدق من الجنان ظاهرا بالقول على اللسان، وفي القرآن نجد أن شكر الله وحمده وحده دليل على صدق العبودية:

**﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (البقرة/ 172)،**

**﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (النحل/ 114).**

وآيات القرآن الكريم تبين أن شرط العبودية لله هو إفراده بالعبادة وعدم اتخاذ شركاء له وتوجيه الشكر له وحده. فالشاكر لله وحده يعلم أن جميع النعم هي من عند الله تعالى، وهي بيده وحده، وبهذا فهو يوقن أن لا إله إلا الله وأن الأمر كله تحت سلطته. والمؤمن الذي ترسخ في قلبه حقيقة أن القوة لله وأن العظمة لله وأن الأمر كله بيد الله لا شك أن إيمانه يصبح على درجة عالية من القوة والمتانة. وهذه هي صورة المؤمن الذي مدحه الله في القرآن وأثنى عليه.

إن سلوك الأشخاص العاطفيين على النقيض من الهدى الذي ترشد إليه هذه الآيات. فهؤلاء الناس ينسبون الخير الذي يصيبهم إلى الوسائل المادية والشخصية

التي سخرها الله لإيصال هذه النعم إليهم. فهم يشكرونه ويثنون عليهم، وبعبارة أخرى، إنهم ينصبون لأنفسهم آلهة شتى ينسبون إليهم القوة والقدرة الإلهية، ناسين أن هذه الأسباب لا تملك لهم نفعا ولا ضرا إلا بإذن الله.

هذا الفهم الخاطئ لمصادر النعم والشعور غير السليم بصاحب الفضل هو ما نجده عند الرومنسيين. فهم يشعرون بالضآلة تجاه من أسدى إليهم أي خدمة من الناس ( كأن يكون مدير العمل، أو أحد الأغنياء...) فهم يغدقون عليهم المدح والشكر بلا حساب. وهذا الموقف هو الذي أوقع الرومنسيين في مشقة كبيرة، وهو بلا شك موقف لا يليق بالمؤمن أن يضع نفسه فيه.

## الانطواء

تتمثل الرومنسية عند بعض الناس فى الانطواء أو العجز عن التواصل مع الآخرين.

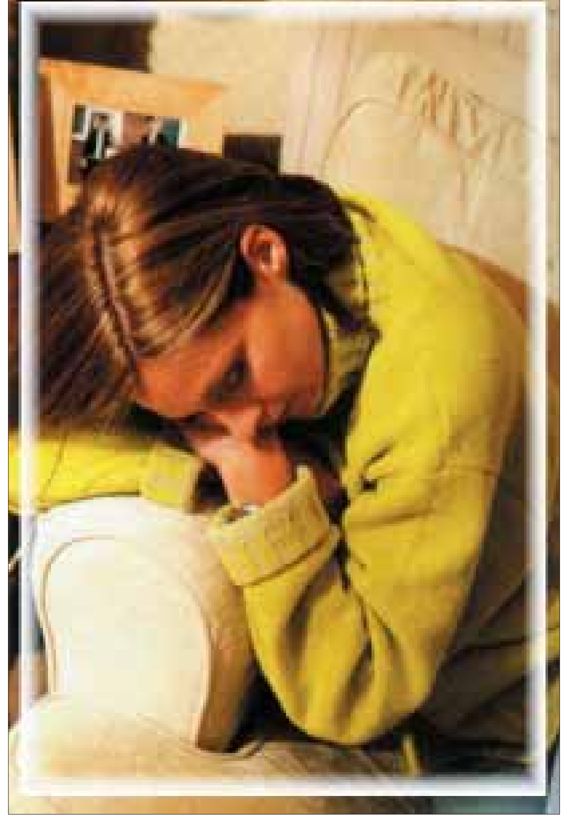
﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 257).

والشخص الذي تنطبق عليه هذه الحالة يعيش في عالم خاص به منكفئا على نفسه ومشاكلها ولا يلقي بالا لما يحدث حوله ولهذا فهو بسبب ضعف شخصيته عاجز عن التصرف ويخاف الخروج من الدفء والأمان الذي يجده في عزلته المصطنعة هذه. وقد بين القرآن الكريم أن من لا يكون قويا مع نفسه ذا شخصية قوية لا يمكنه أن يواجه المحيط الذي يعيش فيه مواجهة سليمة، ولا يمكنه أن يذلل الصعاب التي تعترض سبيله،

بل يبقى عاجزا باستمرار في حاجة إلى من يأخذ بيده. فمن لا يتوكل على الله ولا يستمد العون والقوة منه يشعر بالوحدة والعزلة وكأنه في مواجهة العالم بمفرده، ولهذا السبب فهو يخاف باستمرار أن يخرج من العالم الذي صنعه لنفسه.

وحالة الاكتئاب هذه التي سببها الشعور الرومنسي يمكن أن تؤدي بصاحبها إلى الاضطراب. والحالات المخصوصة التي يمر بها الأشخاص العاطفيون هي: العزلة، التوتر، تدني المعنويات والانهيار العصبي. ولا يعدم هؤلاء الناس سببا للحزن. فالفتاة التي تتندر عليها صديقتها مثلا قد تنفق الليل في البكاء وفي التساؤل عن السبب الذي دفع صديقتها للتندر بها.، وتتساءل الأخرى لماذا لم تكن عيناها ملونتين مثل عيني صديقتها، ولماذا لم يكن قوامها أكثر طولا. فهي تشغل بالها بمئات الأسئلة التي تؤرقا وتقض مضجعها. وغالبا ما تجد الواحد من هؤلاء الناس جالسا في الظلام وهو منهمك في نظم القصائد الحزينة





**الناس العاطفيون تكون نفسياتهم يائسة مضطربة، وهم في العادة قد انقطعت صلتهم بالدين. والله تعالى يدعو الناس إلى التوكل والعيش في طمأنينة.**

صحيفة حريت 14. 04. 1996

**Gençliğin intiharı**

## انتـــحار الشـــباب

صحيفة بوسطة 26. 06. 2000

**Zayıf karne için intihara teşebbüs**

## محاولة انتحار بسبب ضعف نتائج الامتحان

صحيفة صباح 04. 08. 1999

**Salgın gibi intihar**

İstanbul Mert ... kendini
asarak canına ... istedi

## وبـــــاء الانتحـــار

صحيفة مليت 21. 01. 2001

Bu genç kızı, ölmeyi başarmadan engelleyin!

**Üniversite yüzünden intiharkolik oldu**

... intihara
... rişiminde
... arıldı...

## إصرار على الانتحار بسبب الجامعة

صحيفة حريت 09. 06. 2000




انتـــحار فتـــاة

**Canım sıkılıyor dedi, intihar etti**

صرحت
بأنها قلقة
ثم انتحرت

محدقا في الجدران لساعات غارقا في أحلام اليقظة، أو يتمشى في المطر وهو يتنهد بمرارة أو يبكي سرا وعيناه مغرورقتان بالدمع وهو يتحدث بصوت متهدج. أو تجد الواحد يبالغ في شرب الخمر والتدخين. والسبب في ذلك كله أنهم يعيشون في عالم داخلي مكفر مظلم يقودهم إلى عدم الاطمئنان والخلل النفسي والبدني. وفي الواقع فإن كل ما يلحق هؤلاء من الشقاء هو بسبب سلوكهم الذي يغضب الله سبحانه وتعالى.

ولا شك أن هؤلاء الناس لا يستطيعون أن يُغلّقوا على أنفسهم الأبواب ويعيشوا في بيوتهم بمعزل عن المجتمع، هم مضطرون للتعامل معه والخوض فيه، بيد أنهم يخالطون



**من أنواع الشطحات العاطفية ما يُقدم عليه بعض الشباب من التعلق الشديد ببعض نجوم "أغاني البوب"، فيدخلون في حالات من الغيبوبة. وهذه العاطفية الثائرة كثيرًا ما تكون سببا في تصرفات غير معقولة، إذ يُصاب بعض الشباب في ركح الأغاني بالإغماء والغيبوبة فيحملون إلى المستشفيات، وكثيرًا ما شاهدنا ذلك في التلفزيون أو على صفحات الصّحف.**

مجتمعاتهم التي يعيشون فيها بحالتهم العاطفية المنحرفة هذه، فيغضبون لأدنى ملاحظة أو نقد ويستجيبون لأبسط استفزاز ويتصورون أن في كل كلام يقال لهم انتقاد أو استنقاص من شأنهم، ولا يستنتجون من الحديث إلا ما قد يكون أساء لهم. هم يغضبون لأدنى سبب ويسوء مزاجهم فجأة. ترى أعينهم تفيض من الدمع أمام أبسط الحوادث ويجهشون بالبكاء عندما يخلون بأنفسهم.

وقد يتسبب الغلو العاطفي عند الرجال في إصابتهم بأمراض عقلية خطيرة، أو يدفعهم إلى إظهار انحرافات وشذوذ جنسي يصل بهم حد ممارسة اللواط مع غيرهم من الرجال. وهذا الانحراف الذي يقع فيه هؤلاء الأشخاص يعبرون عنه وفق طبيعة المحيط الذي يعيشون فيه، فإن كان المجتمع متفسخا أطلقوا لأنفسهم العنان وأظهروا فساد أخلاقهم وأمزجتهم، وإن كان المجتمع غير ذلك تقوقعوا داخل أنفسهم يتعذبون بنار فسادهم. فإذا أتيحت لهم الفرصة ووجدوا أنفسهم في مكان مناسب انفجرت عقدهم النفسية فتمخضت عن منكر وفحش ورداءة لا حد لها. وهذه المظاهر الغريبة تنتشر اليوم في كثير من المجتمعات.

وفي القرآن الكريم يشير الله إلى سوء عاقبة هذا الانحراف الجنسي من خلال

**إن الأشخاص الذين تسيطر عليهم العواطف ويتقوقعون على أنفسهم وينزون بعيدا عن الآخرين في حالة من الاضطراب يعمدون أحيانا إلى تجاوز جميع القيم الأخلاقية ويخوضون حياة ملؤها الشذوذ والانحراف. والصورة الموازية تبين مشهدًا لمسيرة لمجموعة من الشواذ جنسيا. وهذا نموذج على الانحطاط الأخلاقي الذي تردى فيه هؤلاء.**

الكلمات التي قالها نبي الله لوط لقومه:

**﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾** (**الأعراف/ 80-81**).



**إن الناس الذين يتخلون عن نور العقل والمنطق يقعون فريسة للعواطف، ويبدؤون حياة تتميز بالانحراف.**

والحق أن الابتعاد عن هدى الله واتباع الشيطان هو الذي يسلك الناس في حمأة هذا السلوك الفاضح. ويحذر الله الناس في القرآن من مغبة الانسياق وراء وساوس الشيطان فيقول:

**﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾**

(**البقرة/ 168-169**).

إن جميع أشكال الرومنسية والغلو العاطفي التي ذكرناها في الصفحات السابقة تنطبق بدرجة معينة على كافة الأشخاص الذين تنكروا للعقل وأسلموا زمام أمورهم للعواطف. ويمكن أن نأخذ على ذلك مثال الإنسان العصبي سريع التوتر والهيجان، فبالرغم من أنه يظهر خشونة وغلظة في حالات غضبه إلا أنه بذلك يخفي حقيقة عاطفيته المفرطة وعجزه بلباس الغضب والعصبية. فمثل هذا الشخص قد تصيبه فجأة موجة من البكاء ويوقع نفسه في مواضع الضعفاء العاجزين. والحق أن كل محروم من الإيمان أو من حكمة المؤمن معرّض للإصابة بآفة ضعف

العقل والشخصية الناشئ من الغلو العاطفي الذي يتجلى في أشكال مختلفة من السلوك المنحرف بحسب الظروف والبيئة والوضع الماثل.

إن الرومنسية آفة قد سلم منها المؤمنون الذين عمرت قلوبهم بالإيمان بالله والخوف منه. ولا يستطيع الشيطان أن يستخدم سلاح الرومنسية ضد المؤمن لأن المؤمن محصن ضد هذا السلاح، يقول الله تعالى:

﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ (**الحجر/ 42**).

فالمؤمنون يملكون شخصيات قوية وعزائم صلبة وثقة في النفس، وهي صفات تنبع من إيمانهم المتين وارتباطهم بالقرآن الكريم واحتكامهم إلى العقل والحكمة.

إن فكرة الحب الرومنسي تنتشر بشكل كبير في المجتمعات التي تغلب عليها العاطفة. ويعيش الناس في هذه المجتمعات الحالات الرومنسية بدرجات متفاوتة، فتمتد من العلاقات العائلية إلى علاقات الصداقة، ولعل أكثر هذه المظاهر انتشارا هي علاقة الحب بين الرجل والمرأة.

وفكرة الحب الرومنسي التي تنتشر على نطاق واسع، وتعد السبب في الكثير من الانحرافات سوف نفرد لها قسما خاصا بها.

# فكرة الحب الرومنسي

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ (البقرة/ 165).

يحسن بنا قبل أن نتحدث عن مفهوم الحب الرومنسي أن نبين حقيقة مفهوم الحب عند المؤمنين. إن المؤمن يدرك أن الله هو معبوده الأوحد فيتوجه إليه بقلب عامر بالحب. ولا غرابة في ذلك، فالله هو الذي خلقه وهداه وأنعم عليه بالعقل وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فالله تعالى قد منّ عليه بجميع ما يحتاج إليه وهو الذي يوالي عليه خيراته، ففي هذه الدنيا ما لا يحصى ولا يعد من النعم. والعبد حين يخضع لإرادة خالقه يكون مستحقا لحب الله ورضاه الأبدي. وعليه فإن الله هو الذي يستحق محبة المؤمنين دون سائر الأشياء، يقول الله تعالى: ﴿ **وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ** ﴾ **(الشرح/ 8)**.

والحب الذي يشعر به الناس تجاه بعضهم البعض ينبغي أن يكون لله وفي الله. فيحب المؤمن الأشخاص الذين يدينون لله بالطاعة، وهذا هو الحب الحقيقي لأنه حب لصفات الله التي تتجلى في هؤلاء الناس. ومن الأسباب المثيرة لعاطفة الحب داخل الإنسان ما يراه الشخص في الطرف المقابل من جمال خارق لا يملك نفسه إزاءه فيقع في حبه، فإذا وجد هذا الشعور استجابة من الطرف المقابل توطد ذلك الحب وجرفهما في قارب واحد. لكن ينبغي أن يكون المهم هنا توجيه عاطفة الحب هذه إلى مستحقّها وهو صاحب العلم وخالق الجمال ومصدره. فعندما يعرف الإنسان مصدر الجمال وخالقه وصفاته يدرك أن جميع ما يراه من روعة وإبداع إنما يمثل صورا متعددة لتجليات القدرة الإلهية. فهذه الصفات الإلهية العظيمة تتجلى بأشكال شتى في عباده وتنعكس في كثير من مخلوقاته.

لهذه الأسباب جميعا ينبغي أن **لا يُختص أحد من دون الله بالحب**. والحب الذي نشعر به تجاه بعض الأشياء ينبغي أن يكون باعتباره من تجليات القدرة الإلهية. أما إذا أحب الإنسان شخصا أو شيئا ما بمعزل عن الله تعالى ونظر إليه على أنه وجود مستقل عنه، وأحبه كحبه لله أو أشد حبا فإن ذلك يصبح من أظهر علامات الشرك.

هناك ألوان شتى من الوثنية التي تشيع في المجتمعات وتنشأ من الحب الكاذب

وغير المشروع. إن تقديس المرء لأبيه أو لأبنه أو لأسرته أو لأسلافه بشكل منفصل عن حب الله إنما هو تعبير عن أشكال الحب الخاطئ وغير المشروع. وفي الآية أدناه يبين نبيّ الله إبراهيم عليه السلام كيف أن حب الوثنيين لبعضهم بعضا قد أوقعهم في الإعراض عن الله واتخاذ أصنام يتوجهون إليها بالعبادة، يقول إبراهيم عليه السلام:

**﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾** (**العنكبوت/ 25**).

وهكذا يخبرنا القرآن كيف أن هذه المودة ستتحول إلى عداوة وشنآن في عرصات القيامة. والسبب أن الناس حين يهيمون ببعضهم بعضا فإنهم في الواقع يمارسون الوثنية وهو ما سوف يرديهم في عذاب مقيم يوم القيامة، أما المؤمنون فإن قلوبهم لا تقبل أن تحب إنسانا أو شيئا من الأشياء كحب الله أو أشد حبا، وفي الآية الكريمة يبين الله تعالى مصير من يشرك مع الله أناسا آخرين في المودة:

**﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾** (**البقرة/ 165**).

توضح الآية الكريمة أن المؤمنين يحبون الله أكثر من أي شيء آخر، ومعنى هذا لا يمكن القول أن الذين توجد في قلوبهم محبوبات أخرى غير الله هم المؤمنين. ومن يقول غير ذلك يكون إما غير صادق في إيمانه أو لم يعرف الله حق معرفته. والذي يفهم من نهاية الآية أن المشركين أناس لم يعرفوا الله معرفة جيدة أو لهم به معرفة مشوهة وناقصة.

هؤلاء الناس لم يقدروا الله حق قدره **﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ**

**وَلَقَدْ أُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمُلَكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ الزمر/ 64–65.** ولذلك فهم يوجهون مشاعر المودة إما إلى أنفسهم أو إلى أناس آخرين مثل الآباء أو الأبناء أو الإخوة أو الأزواج أو الزوجات أو إلى أناس يعتبرونهم قدوة في حياتهم أو إلى أناس قد انبهروا بهم وخطفوا أبصارهم. وبعض الناس يتعلقون بأشياء أخرى إلى جانب محبوبيهم هؤلاء، وقد تكون أشياء محسوسة مثل المال أو البيت أو السيارة أو أشياء أخرى غير محسوسة مثل الجاه والسمعة والمكانة.

صفوة القول أن الحب الذي لا يسترشد بالإيمان إنما هو ضرب من الوثنية لأن فيه نسبة الألوهية لغير الله. وهو بهذا الوصف حب رومنسي لأنه ليس في صلة بالله تعالى. وفي القرآن يبين الله تعالى أنه لا خير في مثل هذا الحب وأن الفوز فوز الآخرة:

**﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران/ 14).**

إنه يتعين علينا أن نحب هذه الأشياء بوصفها مخلوقات لله، وأن ندرك أن الله وهبنا هذه الأشياء تفضلا منه ونعمة. والحب الإنساني شعور تتجلى فيه عظمة الله وروعة خلقه. ففي القرآن يخبرنا الله أنه خلق الإنسان "في أحسن تقويم". ولذلك فمن الضروري أن نغذي في قلوبنا حب الله من خلال طاعته والالتزام بالأخلاق الطاهرة. ولا يمكن مقارنة الحب الذي يشعر به المؤمن بالحب الذي يشيع في المجتمعات اللادينية، فحب المؤمن شعور جليل وعميق ومشرق.

وفي الصفحات القادمة سوف نتحدث عن أولئك الذين لم يستطيعوا أن يعيشوا نعمة الحب التي أغدق الله بها على قلوب البشر، وسوف نتوقف بشكل خاص عند العلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة، وهو مثال جيد لتحول المودة الطاهرة إلى شرك

يسوق أصحابه إلى المهالك.

## الحب الوثني بين الرجال والنساء

إن قيام رابطة مشتركة بين رجل وامرأة خارج إطار الشكل الذي يرضاه الله من أهم السبل الموصلة إلى الوثنية، وتتمثل سواء في العلاقات الزوجية أو في العلاقات التي تقوم خارج إطار الزواج، وهي تنتشر يوما بعد يوم في المجتمع. ففي مثل هذا النوع من الحب الرومنسي يؤله الطرفان بعضهما البعض الآخر وينصرف كل همهما وتفكيرهما إلى إرضاء بعضهما للبعض الآخر في عملية مستقلة عن حضور الرقابة الإلهية. فمثل هؤلاء الأشخاص، عندما يفتحون عيونهم صباحا بدل أن يتوجهوا بالشكر والحمد لله تعالى خالقهم، فإنهم يوجهون فكرهم وخيالهم للتفكير في من يحبون، وهم يسعون كذلك إلى غرس هذا الحب ورعايته في قلوبهم بدل أن يتعهدوا هذه القلوب أفيها خشية لله تعالى وخوف منه أم هي خالية من ذلك، وهم لا يخلصون لله الحب قدر إخلاصهم لمحبوبيهم.

وباختصار، فإن الواحد منهم يتخذ من يحب بمثابة المعبود. وهذا النوع من الحب شائع بدرجة كبيرة بين الناس، حتى إنك تجد الواحد من هؤلاء الرومنسيين يخاطب معشوقه سواء في ما يكتبه من شعر أو في ما يقوله لها من كلام معسول قائلا "أنا أعبدك"، "أينما يممت تبعني خيالك ورافقتني ذكراك، ولا طاقة لي على نسيانك". وينسى هؤلاء أن الذي ينبغي أن يلازمهم ويكون في خواطرهم أنى يمموا هو الله سبحانه وتعالى رب السموات والأرض.

إن هذا الحب الرومنسي الذي يتجاوز الحد المعقول والمقبول يصبح ملعونا عند الله تعالى، بل يصبح ضربا من ضروب الشرك. والشيطان يزيّن هذا الحب الرومنسي

ويجمله في أعين الناس ويحثهم عليه، ولذلك فأكثر الناس يسعون خلفه ويتبعون خطاه:

**﴿ تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" ﴾ (النحل: 63)،**

**﴿ ...وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ العنكبوت/ 38.**

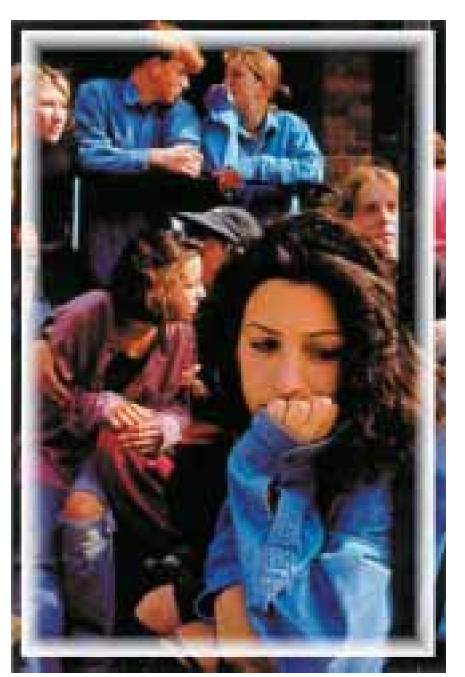
والقرآن الكريم ينبهنا بشكل خاص إلى أن العاطفة الرومنسية هذه كثيرا ما تنشأ تجاه المرأة لما لها من جاذبية. وهذه المرأة بالنسبة إلى الرجل قد تكون زوجته وقد تكون عشيقته وقد تكون امرأة أحبها عن بعد على طريقة ''الحب الأفلاطوني''. فإذا ملكت هذه المرأة على الرجل عقله وقلبه وأصبح لا يفكر إلا فيها وأنسته ذكر الله وأفسدت عليه عبادته وقُدم حبها على حب الله تعالى فإن ذلك يعني أن هذا الشخص قد وقع في الشرك. ولا شك أن هذا الخطر لا يقتصر على الرجال بل يشمل النساء أيضا.

وفي الغالب لا يدرك العالقون بحبال الحب الرومنسي جسامة الخطر الذي يعرضون أنفسهم له، فما يتلقونه



**العلاقة الرومنسية التي تربط المرأة بالرجل كثيرًا ما يميّزها الحزن والدموع والتشاؤم. وكل واحد منهما لا يرى في العالم من حوله سوى صورة الطرف الآخر، ويمكن أن يصرف الساعات الطوال مطرقًا يفكر في نظراته وكلماته. وهذا ما يدفع بصاحبه إلى حالة من الحزن وغياب الوعي.**

من المجتمع منذ نعومة أضفارهم يفتح أبواب الانحراف على مصراعيها أمامهم فيلقون بأنفسهم إلى المهالك وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. إن بعدهم عن الدين وشرودهم عن طريق الله يقودهم إلى مزالق خطيرة ولكنهم لا يشعرون. إنهم لا يعرفون أنهم بفعلهم هذا يستنزلون سخط الله وغضبه، فعدم إيمانهم بالله يعمي بصائرهم ويصم آذانهم.



**من الحالات التي نلاحظها لدى الشباب أنّ كل طرف يصبّ كل تفكيره في الطرف الآخر، وإذا رأى منه نقصا في الاهتمام به لفّه الحزن والكدرُ.**

وقد يدفع الحب الرومنسي طرفيه إلى التصرف بشكل مدمر للذات أحيانا. فقد يندفع شخصان يجمع بينهم الحب إلى الانتحار. وذلك أنه حين تحول الظروف دون التئام شمل عشيقين مثلا فإنهما قد يترديان من حالق وقد تشابكت أيديهما طمعا في ”تخليد“ حبهما و”جمع روحيهما كي يخلدا معا“ أو لغير ذلك من الدوافع غير العقلانية. وما درى المسكينان أنهما يلقيان بنفسيهما في قعر جهنم والعياذ بالله. إنهما بصنيعهما المحرم الممقوت هذا يعتقدان أنهما سوف يجتمعان في عالم آخر وغاب عنهما أنهما سوف يلقيان الله وسوف يذهب عنهما غرور الحب الرومنسي حين يبصران ملك الموت وهما يجودان بنفسيهما، فيركبهما الندم ولكن هيهات أن يجدي الندم وقتذاك. والصحف مليئة بأخبار أولئك المحبين الذين ينتحرون بسبب الفشل في علاقة عاطفية ويتركون وراءهم رسائل تحكي تجاربهم الرومنسية الحالمة، وهي أمثلة حية تكشف إلى أية درجة تقود الرومنسية صاحبها إلى تعطيل مداركه العقلية ومشاعره الإنسانية السليمة.



MEGA STAR

News Sport Chat Babes Showbiz

Guillotine nightmare

HEARTBROKEN Cabo Vincent killed himself with a homemade guillotine two months to the day after his beloved wife's death.

جريدة حريت، 30. 01. 1999



MEGA STAR

News Sport Chat Babes Showbiz

Hunt on for lover

DETECTIVES were last night hunting the runaway lover of a woman doctor who died in agony after drinking sulphuric acid.

جريدة حرّيت، 01. 06. 2000



Üniversiteli âşıkların intiharı

birlikte intihar ettiler.

انتحار عاشقين من طلاب الجامعة

جريدة صباح، 21. 10. 2000



يكتب اسم حبيبته بدمه

Sevgilisinin adını kanıyla yazdı

‘Birlikte ölmek’ için Kars’a gitti

ذهبا إلى "قارص" معا لكي يضعا حدا لحياتهما هناك

شخص ينتحر بسبب أنّ حبيبته هجرته، وشخص آخر يقتل نفسه بسبب أنّ ظروف الحياة لم تمكنه من إتمام الزواج بمن يحبّ، وشخص آخر يلحق الأذى بنفسه لأن حبيبه لا يهتم به كما ينبغي، وشخص آخر يحاول قتل نفسه بسبب المشاكل التي يعيشها مع زوجته... هذا النوع من الأخبار يطالعنا من حين لآخر في الصحف والتلفزيون وفي مواقع الأخبار. ولا شك أنّ جميع هذه الحالات سببها العواطف التي تعصف بالرجل والمرأة. وفي الأعلى تظهر نماذج متنوعة لهذا الانحراف. في الخبر الموجود في بداية الصفحة بالإنكليزية؛ شخص يقتل نفسه بعد أن قتل زوجته. وفي الأعلى إلى اليسار شاب يقتل نفسه بحامض السولفيريك لأنه وقع في خصام مع حبيبته. ولا ريب أنّ الشيطان خدع هؤلاء الناس وأضلّهم عن سواء السبيل.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾

(يونس: 27-28)

إن الذي الشخص الذي أعمته المشاعر الرومنسية في الدنيا واتخذ من زوجته إلها يعبده يود يوم القيامة لو يفتدي من عذاب ذلك اليوم بزوجته حتى ينقذ نفسه، فعندئذ تنكشف الحجب ويحصحص الحق وتذهب روابط الحب الدنيوي الرومنسي هباء. وقد صورت الآية الكريمة موقف هؤلاء:

**﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾**

**(المعارج/ 11–14)**،

وفي آية أخرى يصور القرآن الموقف نفسه فيقول تعالى:

**﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس/ 34–37).**

وفي الغالب يكون صغار السن من النساء والرجال ضحايا لوهم الحب الرومنسي الذي يعطل عقولهم وضمائرهم ويحرمهم من نعمة الإيمان بالله والتقيد بشرعه، فينحدرون في مهاوي الوثنية.

تعمل وسائل الإعلام من سينما وتلفزيون على فرض الموضوعات العاطفية على المشاهدين غارسة في أذهانهم فكرة أن العاطفة ميل طبيعي مركوز في نفس الإنسان. والشيطان يعلم تمام العلم أن الرومنسية مرض يمنع الناس من التفكير السليم ويحجب أبصارهم عن رؤية الواقع وتذكر الله وعن التفكر في علة وجودهم ومآلهم يوم القيامة.

وليحذر الذين يظنون أن الوثنية تنحصر فقط في اتخاذ آلهة من حجر أو من خشب أن يقعوا في الوثنية أو أن يكونوا ممن يقولون يوم القيامة:

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام/ 23).

## حب المؤمنين

يحب المؤمنون الله ربهم ولا يرون في الناس وغيرهم من خلق الله سوى انعكاس لعظمة الله. إنهم لا يحبون إلا لله وفي الله، لأنهم يقرأون في المخلوقات صفات الله عز وجلّ، وهم لا يحبون شيئا بشكل مستقل وبمعزل عن الله، بل إن كل شيء في حياتهم في صلة بخالقه، وهذا من علامات الإخلاص في الإيمان ومؤشر على صدقه.

إن حب المؤمن صاف شفاف ينير القلب وذلك لأن محبوبه هو الله تعالى. ولهذا لا تذهب نفس المؤمن حسرات لفقد حبيب من الناس أو المال لأنه يؤمن بالله مالك الناس والأشياء. إن الله حي لا يموت، ولا يبلى بمرور الزمن. إن المهم بالنسبة إلى المؤمن هو أن يكون قريبا إلى الله ما ستطاع إلى ذلك سبيلا، ولهذا فإن نفسه لا تغتم لفقد شيء من الأشياء، وهو يعرف أن ما أخذه منه الله تعالى إنما هو بمثابة امتحان، فهو لم يأخذ منه سوى تجل من تجلياته سبحانه. إن المؤمن إذا عاش في هذه الدنيا وفي قلبه هذه القناعة وفي عقله هذا الفهم فإنما يعيش حياة كلها سعادة في الدنيا ويرزق الخلود في الآخرة بفضل من الله. وإذا ترسخت هذه المفاهيم لدى المؤمن فلن يجد الحزن إلى قلبه سبيلا. وعن هذه الروح العظيمة الواثقة المطمئنة يحدثنا الله في القرآن فيقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأحقاف/ 13).

# الأمراض العضوية التي تسببها الرومنسية

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـــكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(يونس/ 44).

مثلما أن الرومنسية تلحق بمن تلبس بها أذى عقليا وروحيا، فهي أيضا تحدث اعتلالا صحيا عضويا. وأبرز هذه الأعراض المرضية التغيرات الفسيولوجية الواضحة التي ليس بوسع الشخص إخفاءها. وإن تعبيرات وجه الشخص العاطفي وحركة يديه ونبرة صوته كل ذلك يبيّن أن شخصيته أو شخصيتها تخضع لتأثير العاطفة.

وثمة تغييرات أخرى تعتري الشخص الرومنسي مثل تساقط الشعر وظهور الشيب وفقدان الشعر لبريقه، وفقدان الجسم لرطوبته ومرونته وجفافه واستغلاظه وتجعده وتشققه مما ينشأ عنه قابلية للإصابة بالالتهابات والعدوى. ومن التأثيرات أيضا فساد لون البشرة بسبب التأخر في تجدد الخلايا، واصفرار لون الوجه، كما تفقد العين بريقها وحيويتها. والسبب في كل هذا هو الرومنسية. وثبت كذلك أن الأشخاص الرومنسيين معرضون دون غيرهم للهرم المبكر وذلك بسبب تعرّضهم للتوتر والإجهاد العقلي لفترات طويلة.

ولا يقتصر تأثير الشعور العاطفي المبالغ فيه على ما ذكرنا من التأثيرات البدنية الفيزيولوجية بل إن حالة التشاؤم التي يسبح فيها هذا الشخص تنعكس على حياته بشكل كامل فتتضاءل حيويته ويتناقص نشاطه، وتقل عنده الرغبة في الحياة . كما يلاحظ عليه انطفاء نور الحياة من عينه ووجهه، ويتغلفان بغشاء من القسوة. وليس كل هذا سوى الشيء القليل.

وإضافة إلى هذه التغييرات التي تحدث لهؤلاء الاشخاص فإن خوفهم وقلقهم وكوابيسهم تزداد عندما يعرفون أن هذه الدنيا ليست دار قرار وإنما هي إلى فناء وزوال، وعندما يعلمون أنهم يسيرون إلى نهايتهم المحتومة باتجاه الموت والآخرة ولا يملكون حيلة لدفع هذا المصير عن أنفسهم. إنهم لا يفهمون أن الله تعالى يمكن أن يكون قدر لهم الخير في المرض والكبر، ولذلك تراهم هائمين على وجوههم لا يلوون على شيء،



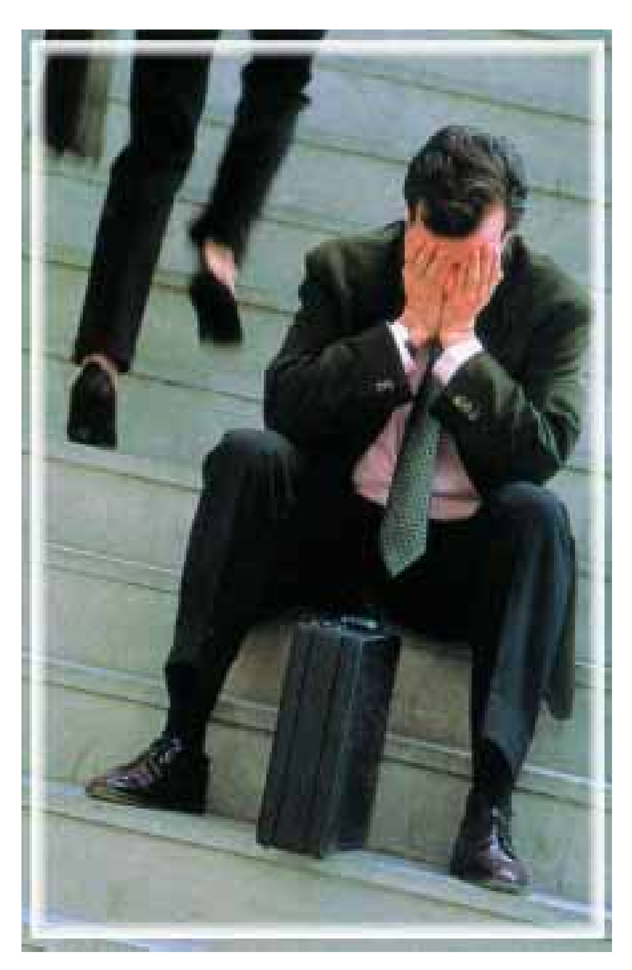

**المشاكل النفسية التي تسببها العواطف تقود بدورها إلى مشاكل فيزيولوجية، وقد تتحول إلى أمراض حقيقية.**

ولا يستعدون لشيء من أمور المستقبل. هذا الخوف الدائم والقلق المزمن يجعلهم يئنون طوال الوقت في سجون أجسامهم المنهكة.

والحق أن الأطباء قد أشاروا إلى أن هناك طائفة من الأمراض، مثل الأرق وفقدان الشهية وارتفاع ضغط الدم وامراض المعدة والكلى والقلب وغيرها من الأمراض الباطنية، وأمراض جلدية مثل الحساسية والإكزيما والسدف وبعض الأمراض الأخرى مثل السرطان والهزال سببها مشاكل نفسية مثل الحزن والقلق والإجهاد. وفي مواجهة هذه الضغوط فإن الجسم يستهلك أقصى ما يمكن من الطاقة، وإذا لم يوضع حد لها وتواصلت لفترات طويلة فإنها تكون سببا في اختلال الوظائف الحيوية للجسم.

ويتحدث الأخصائيون عن الآلام التي تسببها الضغوط النفسية على النحو التالي: "ثمة علاقة وثيقة بين الضغوط النفسية وما يتولد عنها من اضطرابات وآلام. فالاضطرابات التي تتولد من الضغوط النفسية المتراكمة تتسبب في ضيق الأوعية الدموية واختلال في كمية الدم التي تتدفق إلى أماكن محددة في الدماغ. فالذي يعيش حالة من التوتر قد يحتاج إلى كميات أكبر من الأوكسيجين ولكن عدم





وصول الدم بشكل متوازن وكاف إلى الدماغ هو الذي يسبب تلك الآلام التي تعقب هذه التوترات أو تصاحبها. وفي حالة التوتر فإن الجسم يقوم بإفراز مادتي الأدرينالين والنورأدرينالين اللتين تؤثران سلبا على النظام العصبي، وبالتالي يلاحظ زيادة علامات التوتر على مستوى العضلات والأعصاب. وهكذا يتسبب الألم في قلق شديد، والقلق بدوره يقود إلى الخوف وهذا الخوف يضاعف من شدة الألم"[12].

إن الذين تكون قلوبهم خاوية من الإيمان يكثر عندهم التوتر والخوف والقلق والإجهاد، وهذا كله يتسبب في ضعف الذاكرة، وقلة التركيز وعدم القدرة على التحليل السليم للأمور والتصرفات غير المنطقية وعدم القدرة على التحكم في النفس. وفي المقابل فإن من يكون قلبه عامرا بالإيمان تراه غاية في الصحة النفسية عقلا وروحا، وعلى أحسن حال من التوازن والهدوء.

إن السكينة الحقيقية والسعادة الدائمة لا تحصلان إلا بالتوكل على الله والتسليم له في كل صغيرة وكبيرة من أمور حياتنا. والمؤمنون هم في سعادة دائمة لأنهم أوكلوا أمرهم إلى الله وإلى ماخلقه من مقادير. ولذلك فإن من أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان عصموا من هذه الأمراض ومن تأثيراتها المدمرة.

لا يمكن التخلص مما جلبته الرومنسية من أحزان إلا بالتوكل على الله والعيش في كنف الإيمان. ويصور الله تعالى المؤمنين الذين أنعم عليهم بالجنة وهم يحمدونه فيقول سبحانه:

**﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾**

**(فاطر/ 34)**.

# الخاتمة: سبيل النجاة من مرض الرومنسية

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

الزمر/ 61.

إن أول ما يصاب به أولئك الذين يفضلون العيش بمعزل عن أخلاق الدين وقيمه من الخلل في الشخصية هي الرومنسية، أو العاطفة المُفرطة. ومن الخطإ الاعتقاد بأنه لا يمكن التخلص من هذه الحالات أو أنها وجدت مع ولادة الإنسان. إن هذه السمة يكتسبها الشخص سواء عن وعي أو عن غير وعي. فلو فكر هؤلاء جيدا لأدركوا أنه ليس صحيحا أن حالات الحزن والبكاء والغضب التي تنتابهم خارجة عن إرادتهم ولا يملكون إزاءها أية حيلة. والدليل على ذلك، إذا كان الشخص يعاني حزنا وقلقا شديدين وأعطي مبلغا من المال يكفي حاجته ويلبي جميع مطالبه فإن حالته تنقلب بسرعة ويغمره الفرح والحبور. ولذلك فإن المرء يعيش هذه الحالات من الحزن لموقف ما يتخذه من المجتمع وبسبب ظلمه لنفسه بترك ما أمر به القرآن الكريم:

**﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يونس/44** .

بيد أن الأشخاص الرومنسيين لا يدركون هذه الحقائق. فهم يعيشون دوما في جو من الكآبة والحزن، ومهما كان المحيط الذي يعيشون فيه لابد واجدون لأنفسهم ما يحزنهم ويكدر صفو حياتهم. والحقيقة أن هؤلاء الناس يظلمون أنفسهم بأيديهم، والآية الكريمة تبين هذه الحقيقة:

**﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ الروم/36.**

لكي يسلم الإنسان من خطر الرومنسية فإن عليه التفطن لحيل الشيطان وألاعيبه، وهو أمر لا يتأتى إلا بتعميق الإيمان بالله تعالى. فالإحباط الذي تسببه الرومنسية لا يليق



إن المشاعر المبالغ فيها والتشاؤم المستمر يمنعان الإنسان من إدراك النّعم ومظاهر الجمال الموجودة في الكون. فبينما يكون الإنسان محاطا بآلاف مظاهر الجمال لا يرى فيها سوى السّواد، وبالتالي يفقد أيّ سعادة. والله تعالى رحمة وشفقة بالإنسان أحاطه بنعم لا تحصى ولا تعد. أما المؤمنون الصادقون والمتفكرون فلا تغيب عنهم هذه النعم، فيشكرون الله تعالى سعادة بهذه النعم.



بالمسلم الصادق في إسلامه، فحري بالمسلم أن يكون حكيما لا يعجزه العثور على الحلول للمشاكل التي تعترض سبيله، وحري به كذلك أن يكون نموذجا ومثالا لمن حوله من الناس. وذلك لأن الإيمان يسكب في نفس المؤمن الرضا والقناعة، كما أن نقاء سلوكه هذا وصفاءه يشع منداحا لينشر البشر والحبور على من حوله حتى في أحلك اللحظات. ولا شك أن هذا النوع من السلوك يثمر حياة مشرّفة مشرقة هادئة طيبة في الحياة الدنيا وفي الآخرة. إن الحزن والقلق والتشاؤم وغيرها من آفات لا تعرف طريقا إلى حياة المؤمن:

**﴿ "وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"﴾ (الزمر: 61).**

فالمؤمنون يعيشون في سعادة وطمأنينة وأمان، وهي كلها نعم يمن بها الله تعالى يوم القيامة على عباده الصالحين. فهم يصلون سعادتهم في الدنيا بسعادتهم التي يرجونها في الآخرة. ويقول الله تبارك وتعالى واصفا النعيم الذي سيصيب المؤمنين في الدار الآخـــرة بقوله:

**﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ الإنسان/ 11.**

وفي آية أخرى يصف الله الفرق بين المؤمنين وغير المؤمنين فيقول:

**﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ عبس/ 38-42.**

فيوم القيامة يفاجأ الكافرون بحقيقة جهنم وما فيها من ألوان العذاب الأبدي الذي استحقوه بطاعتهم للشيطان واتباعهم خطاه في الحياة الدنيا، أما المؤمنون، فيلقون نعيما

مقيما وهناء سرمديا في جنات الخلد:

**﴿ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾**

(**هود/ 105-108**).

# انهيار الدّاروينية

لقد ظهرت النظرية الدّاروينية، يعني نظرية التطور بهدف رفض فكرة الخلق، بيد أنها لم تنجح في ذلك، واُعتبرت مجرد سفسطة خارجة عن نطاق العلم. وهذه النظرية تدّعي أن الكائنات الحية تولدت بطريق المصادفة من الكائنات غير الحية، وقد تم ردها ونقضها بعد أنّ أثبت العلم أنّ الكون والكائنات الحية تحتوي على أنظمة غاية في الإعجاز. وعلى هذا النحو أثبت العلم كذلك أن الله تعالى هو خالق الكون وخالق جميع الكائنات الحية.

وهذه النظرية لا تقوم سوى على مناقضة الحقائق العلمية والأكاذيب التي ترتدي لباس العلم وجملة من التزييفات، وقد تم القيام بحملة واسعة على نطاق العالم لكي تبقى هذه النّظرية قائمة على أقدامها، غير أن هذه الحملة لم تتمكن من إخفاء الحقيقة.

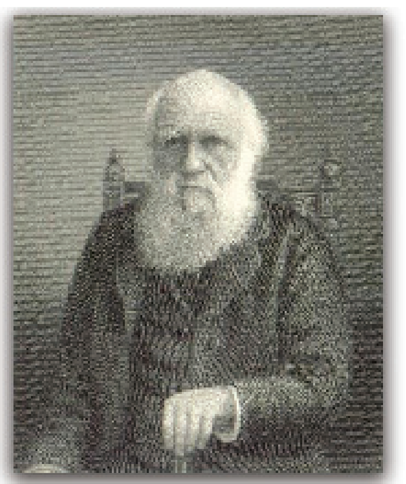
لقد تعالت الأصوات خلال الثلاثين سنة الماضية في دنيا العلم تبيّن بأن نظرية التطور تمثل أكبر خديعة في تاريخ العلم. وقد أثبتت الأبحاث التي أجريت بشكل خاص اعتبارًا من عام 1980 بأنّ الإدعاءات الدّاروينية عارية تماما من الصّحة، وقد تم التصريح بذلك من قبل العديد من كبار رجال العلم. ففي الولايات المتحدة بشكل خاص، صرح الكثير من علماء البيولوجيا والكيمياء الحيوية وعلم الحفريات وغيرها من العلوم الأخرى بأن الداروينية وصلت إلى طريق مسدود وأنّ أصل الكائنات الحية هو الخلق. واليوم تؤكد التطوّرات العلمية بأن الكون وجميع الكائنات الحية قد خُلقت من قبل الله تعالى.

لقد تناولنا مسألة انهيار نظرية التطور ودلائل الخلق في مواضع كثيرة من أعمالنا، وسوف نُواصل ذلك في أعمال أخرى. ولكن بالنظر إلى الأهمية البالغة التي يكتسيها هذا الموضوع رأينا أنه من الفائدة إيراد ملخص لذلك في هذا الموضع أيضا.

## الانهيار العلمي للنظرية الداروينية

بالرغم من أن هذه النظرية تعود في جذورها إلى التاريخ الإغريقي القديم، إلا أنها شهدت أوسع انتشار لها في القرن التاسع عشر . كان أهم تطور شهدته النظرية هو صدور كتاب تشارلز داروين "أصل الأنواع" الذي صدر عام 1859. في هذا الكتاب ينكر داروين أن الأنواع المختلفة على الأرض قد خلقها الله. يقول داروين أن جميع الكائنات الحية لها جد مشترك وأنها قد تنوعت واختلفت بسبب اختلافات طارئة متدرجة أتت عليها عبر الأزمان.

وكما يقر داروين نفسه، فإن نظريته لا تقوم على أي حقيقة علمية ثابتة، بل إنها مجرد "إفتراض". علاوة على ذلك، يعترف داروين في فصل مطول من كتاب بعنوان "المصاعب التي تواجهها النظرية" أن النظرية تتهاوى أمام العديد من الأسئلة الحرجة.



**شارلز داروين**

عقد داروين آماله على الاكتشافات العلمية التي كان يظن أنها ستزيل العقبات التي تواجهها نظريته، إلا أن ما أثبتته هذه الاكتشافات جاء عكس ما تمناه الرجل.

وتظهر هزيمة داروين أمام العلم الحديث من خلال ثلاث نقاط رئيسية:

1-لم تتمكن هذه النظرية بأي وسيلة من الوسائل أن تفسر كيف نشأت الحياة على وجه الأرض.

2-لا يوجد أي اكتشاف علمي يدل على قدرة "التقنيات التطورية" التي تفترضها النظرية على التطور في أي حال من الأحوال.

3-مايثبته السجل الإحاثي هو عكس الادعاءات التي تقوم عليها نظرية التطور.

سنناقش في هذا الفصل هذه النقاط الثلاث الرئيسية:

## العقبة الأولى التي لم تذلل: أصل الحياة

تقول نظرية التطور أن جميع الكائنات الحية قد تطورت عن خلية وحيدة ظهرت على سطح الأرض البدائية منذ 3.8 ملايين سنة. ولكن كيف يمكن لخلية وحيدة أن ينشأ عنها الملايين من الأنظمة والأنواع الحية؟ وإذا كان هذا التطور قد حدث فعلاً فلماذا لم تظهر علائمه في السجلات الإحاثية ، هذا سؤال لم تتمكن النظرية الإجابة عليه. إلا أن السؤال الأول الذي بقي يواجه هذه النظرية، التي لم تجد جوابا عليه حتى الآن، هو كيف نشأت "الخلية الأولى".

تفسر نظرية التطور، التي لا تعترف بالخلق ولا تقبل بوجود خالق، نشوء الخلية الأولى على أنها أتت عن طريق الصدفة التي تتضمنها قوانين الطبيعة. حسب هذه النظرية تكون المادة الحية قد نشأت من مادة غير حية نتيجة للعديد من المصادفات، ومن المؤكد أن هذا الزعم لا يتوافق مع أبسط قواعد علم الأحياء.

## الحياة تنشأ من الحياة

في هذا الكتاب، لم يتطرق داروين إلى أصل الحياة. فقد كان الفهم البدائي لحقيقة الحياة في عصره يعتمد على الإفتراض بأن الكائنات الحية ذات بنيات بسيطة جداً. لقد لاقت نظرية النشوء التلقائي التي

انتشرت في القرون الوسطى، والتي تقول أن المواد غير الحية تجمعت من تلقاء نفسها لتشكل كائن حي، رواجاً واسعاً في ذلك الزمن. من الاعتقادات التي نتجت عن هذه النتيجة هي أن الحشرات تنشأ عن بقايا الطعام، وأن الجرذان تأتي من القمح. هنا يجدر بنا أن نتعرض لتجربة مضحكة قام بها البعض، حيث تم وضع بعض القمح على قطعة وسخة من القماش، وكان المنتظر أن يخرج جرذاً بعد برهة من الزمن.

ومن المنطلق ذاته كان يعتقد أن الديدان تخرج من اللحم؛ إلا أنه لم يلبث العلم أن أثبت أن الديدان لا تخرج من اللحم بشكل تلقائي، وإنما يحملها الذباب بشكل يرقانات لا ترى بالعين المجردة.

كان هذا الاعتقاد سائداً في الزمن الذي كتب فيه داروين كتاب "أصل الأنواع" ، فقد كان يعتقد بأن البكتريا جاءت إلى الوجود من مادة غير حية وكان هذا الاعتقاد مقبوا علمياً.

لم يطل الوقت حتى أعلن باستور نتائج دراساته الطويلة وأبحاثه الكثيرة التي تدحض أساس نظرية داروين. قال باستور في محاضرته التي أعلن فيها عن انتصاراته في السوربون عام 1864:

"لا يمكن أن تستفيق نظرية النشوء التلقائي من الضربة الصاعقة التي أصابتها بها هذه التجربة البسيطة." 13

قاوم المدافعون عن النظرية الداروينية اكتشافات باستور لوقت طويل. إلا أن ماجاء به باستور بالإضافة إلى ما كشف عنه التقدم العلمي من البنية المعقدة لخلية المادة الحية، أبقيا فكرة وجود الحياة على سطح الأرض عن طريق الصدفة في مأزق لم تستطع الخروج منه.

## المحاولات العاجزة في القرن العشرين

إن أول من تبنى موضوع منشأ الحياة في القرن العشرين كان التطوري المشهور ألكسندر أوبارين. تقدم هذا العالم بالعديد من الآراء العلمية في الثلاثينيات من ذلك القرن، حاول من خلالها إثبات إمكانية تطور خلية الكائن الحي عن طريق الصدفة. إلا أن دراساته لم تنته إلا بالفشل، مما حدا بأوبرين تقديم الاعتراف التالي:

" للأسف، بقيت مشكلة منشأ الخلية الأولى أكثر النقاط غموضاً في دراسة تطور الأنظمة الحية".[14]

حمل التطوريون بعد أوبرين مسؤولية حل مشكلة منشأ الحياة. وكان أكثر هذه التجارب شهرة تلك التي قام بها الكيميائي الأمريكي ستانلي ميللر عام 1953. قام هذا العالم بدمج عدد من الغازات التي يفترض أنها كانت موجودة في المناخ البدائي للأرض، وأضاف إليها مقدار من الطاقة. من خلال هذه التجربة تمكن ميللر من تركيب عدد من الحموض الأمينية (الجزيئات العضوية) التي تتواجد في

تركيب البروتينات.

إلا أنه لم تمض عدة سنوات حتى ثبت بطلان هذه النظرية، التي كانت تعتبر خطوة رائدة في تقدم نظرية التطور، فالمناخ الذي استخدم في هذه التجربة كان مختلفاً جداً عن الظروف الأرضية الحقيقية.[15]

وبعد فترة من الصمت اعترف ميللر أن المناخ الذي استخدمه في تجربته كان غير حقيقياً.[16]

لقد باءت جميع محاولات التطوريين في إثبات نظريتهم في القرن العشرين بالفشل. يعترف العالم الجيولوجي بادا من معهد سكريبس في سانت ياغو بهذه الحقيقة في مقالة نشرتها مجلة "الأرض" عام 1998:

> "ها نحن اليوم نغادر القرن العشرين دون أن نتمكن من حل المشكلة التي بدأنا القرن معها وهي : كيف بدأت الحياة على الأرض؟"[17]

## البنية المعقدة للحياة

السبب الرئيسي الذي أوقع نظرية التطور في مأزق "كيف بدأت الحياة" هو أن الكائنات الحية، حتى البسيطة منها، تنطوي على بنيات في غاية التعقيد. فالخلية الواحدة من الكائن الحي أكثر تعقيداً من أي منتج تقني صنعته يد البشر. فحتى يومنا هذا لا يمكن لأي مختبر كيميائي مهما بلغت درجة تطوره أن ينجح في تركيب خلية حية من خلال تجميع عدد من المواد العضوية مع بعضها.

إن الظروف المطلوب توفرها لتركيب خلية حية هي أكثر بكثير من أن تُعرض. فإمكانية تركيب أحد البروتينات التي تعتبر حجر الأساس في الخلية بشكل عشوائي هي 1 إلى $10^{950}$ وهذا بالنسبة لبروتين مكون من 500 حمض أميني؛ وفي الرياضيات يعتبر أي احتمال أصغر من 150 مستحيلاً!

إن جزيء الـــ DNA الذي يتواجد في نواة الخلية والذي يخزن المعلومات الوراثية، هو في حد ذاته بنك معلومات معجز. فلو أن المعلومات المشفرة في جزيء DNA قد أفرغت كتابة فإنها ستشغل مكتبة عملاقة مكونة من 900 مجلداً من الموسوعات كلا منها يتألف من 500 صفحة.

وهنا تنشا مشكلة أخرى مثيرة: فجزيء الـــ DNA لا يمكنه أن يتضاعف إلا بمساعدة بعض البروتينات المختصة (الأنزيمات)، وهذه الأنزيمات لا يمكن أن تتشكل بدورها إلا من خلال المعلومات المشفرة في جزيء الـــ DNA. وبما أن كل منهما يعتمد على الآخر ، فمن الضروري أن يتواجدا في الوقت نفسه عند عملية التضاعف.وهذا يأتي بالنظرية القائلة أن الحياة قد نشأت من تلقاء نفسها إلى طريق مسدود. وقد اعترف البروفسور ليسلي أورجيل ، وهو تطوري مشهور من جامعة سانت ياغو كاليفورنيا بهذه الحقيقة من خلال موضوع نشر في مجلة العلوم الأمريكية عام 1994:

"من المستحيل أن تكون البروتينات والحموض الآمينية، وكلاهما جزيئات معقدة، قد نشأت من تلقاء نفسها في نفس الوقت وفي نفس المكان. أضف إلى عدم إمكانية تواجد أحدهما دون الآخر . وهكذا ومن النظرة الأولى يجد أحدنا أنه من المستحيل أن تكون الحياة قد نشأت من خلال عمليات كيميائية بحتة"[18]

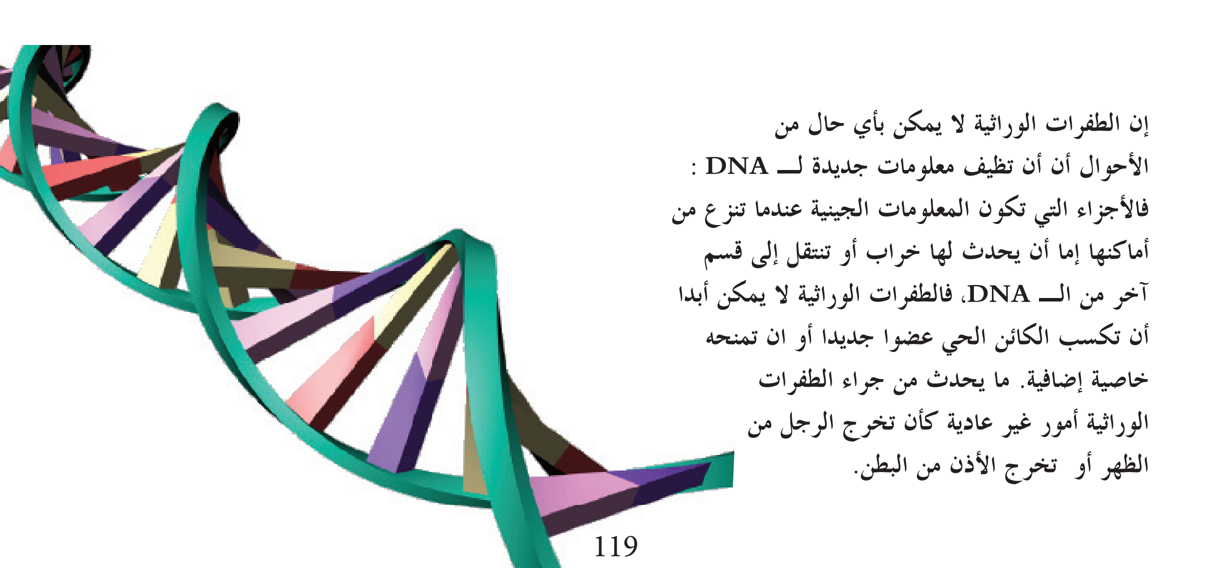
لا شك أنه إذا كان من المستحيل أن تنشأ الحياة من أسباب طبيعية، فلا بد أنها قد "خلقت" بيد خالق. هذه الحقيقة تلغي نظرية التطور ، والتي تهدف بالدرجة الرئيسية إلى إنكار الخلق، من أساسها.

## الأفكار الخيالية لنظرية التطور

النقطة الثانية التي تدحض نظرية داروين هي أن كلا المفهومين اللذين وضعتهما النظرية كـــ "تقنيات تطورية" ثبت أنها في الحقيقة لا تملك أي قوة تطورية.

لقد اعتمد داروين في خدعة التطور التي خرج بها على فكرة "الإصطفاء الطبيعي". وقد ضمن هذه الفكرة في كتابه: "أصل الأنواع ، عن طريق الاصطفاء الطبيعي..."

يقول قانون الاصطفاء الطبيعي أن الكائنات الحية التي تمتلك خصائص قوية فقط هي التي يمكن أن تبقى في معركة الحياة. على سبيل المثال، عندما تهاجم الحيوانات المتوحشة قطيعاً من الغزلان، فإن الغزلان الأقوى والتي يمكنها أن تركض بسرعة أكبر هي التي ستنجوا وتبقى على قيد الحياة. وهكذا يتشكل قطيع جديد من الأقوياء والسريعين فقط. ولكن، ولنفترض أننا سلمنا بهذا جدلاً، فهل يمكن



**إن الطفرات الوراثية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تظيف معلومات جديدة لـــ DNA : فالأجزاء التي تكون المعلومات الجينية عندما تنزع من أماكنها إما أن يحدث لها خراب أو تنتقل إلى قسم آخر من الــ DNA، فالطفرات الوراثية لا يمكن أبدا أن تكسب الكائن الحي عضوا جديدا أو ان تمنحه خاصية إضافية. ما يحدث من جراء الطفرات الوراثية أمور غير عادية كأن تخرج الرجل من الظهر أو تخرج الأذن من البطن.**

لهؤلاء الأقوياء من قطيع الغزلان أن يتطوروا بأي شكل من الأشكال ليصبحوا خيولاً مثلاً؟ بالطبع لا.

لذلك نقول أن هذه الفكرة لا قوة تطورية لها. داروين نفسه كان قلقاً بشأن هذه الحقيقة التي وضعها في كتابه أصل الأنواع حيث قال:

"لا يمكن لقانون الاصطفاء الطبيعي أن يحقق شيئاً مالم تحدث تغييرات فردية إيجابية".[19]

## تأثير لامارك

ولكن كيف تحدث هذه "التغيرات الإيجابية"؟ حاول داروين الإجابة على هذا السؤال من خلال الفهم البدائي للعلوم في ذلك الوقت. فحسب نظرية لامارك الذي عاش قبل داروين، فإن الكائنات الحية تورث صفاتها التي اكتسبتها خلال حياتها إلى الأجيال التالية ، وهذه الصفات تتراكم من جيل إلى آخر لتشكل أنواع جديدة من الكائنات الحية. فحسب لامارك، الزرافات هي كائنات تطورت عن الظباء عندما كانت تجاهد من أجل الوصول إلى الثمار التي تحملها الأشجار العالية، فطالت رقبتها من جيل إلى آخر حتى استقرت على هذا الطول.

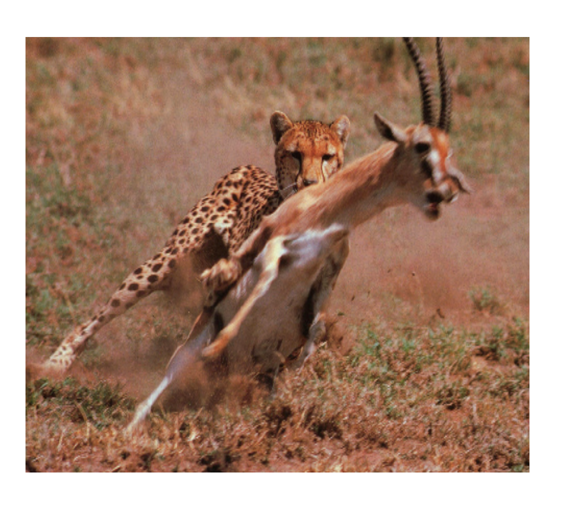
وباقتفاء أثره، أورد داروين مثالاً مماثلاً في كتابه فقال أن الدبب غطست في الماء أثناء بحثها عن الطعام فتحولت إلى حيتان على مر الأجيال".[20]

إلا أنه ما لبثت أن ظهرت قوانين الوراثة على يد العالم ماندل في القرن العشرين، مما أحبط أسطورة امتداد الصفات عبر الأجيال. وهكذا سقط الاصطفاء الطبيعي كدعامة من دعامات نظرية التطور.

## الداروينية الجديدة والطفرات

ومن أجل الوصول إلى حل، قام الداروينيون بتطوير "نظرية تركيبية جديدة" أو ما يدعى بـــ "الداروينية

**ليس هناك أي مكسب حصل لنظرية النشوء والإرتقاء من فكرة الانتقاء أو الاختيار الطبيعي. ذلك لأن هذه الآلية لم تعمل في يوم من الأيام على تطوير المعلومات الجينية أو إغنائها لدى أي نوع من الأنواع. إنه لا يمكن لأي نوع أن يتغير إلى نوع آخر مختلف عنه؛ بمعنى أن التطور لا يمكن أن يغير نجم البحر فيصبح سمكة، أو يغير الأسماك فتصبح ضفادع، أو يغير الضفادع فتصبح تماسيح أو يغير التماسيح فتصبح طيورا.**



الجديدة" في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين. أضافت الداروينية الجديدة نظرية "الطفرات"وهي تشوهات جينية تطرأ على الكائن الحي وتحدث بفعل تأثيرات خارجية مثل التعرض إلى الإشعاعات وأخطاء في تضاعف الـــ DNA، بالإضافة إلى الطفرات الطبيعية.

و النموذج الذي يقف مدافعاً اليوم عن نظرية التطور هو الداروينية الجديدة.تقول هذه النظرية الجديدة ــــأن الملايين من الأحياء المتواجدة على سطح الأرض قد جاءت نتيجة لطفرات طرأت على الأعضاء المعقدة لهذه الكائنات مثل الآذان والعيون والرئات والأجنحة، أي إضطرابات وراثية. إلا أن الحقيقة العلمية تأتي في عكس الاتجاه المطلوب. فالطفرات لم تكن في يوم من الأيام إيجابية تؤدي إلى تقوية وتعزيز القدرة الحيوية الكائن الحي، وإنما إلى إنهاكها وإضعافها..

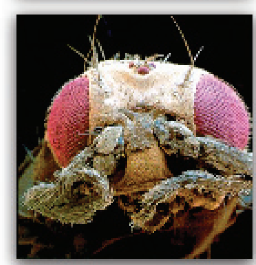
والسبب وراء هذا ببساطة هو أن جزيء DNA يحمل بنية معقدة جداً وأي تغيير عشوائي فيها سيؤدي ضرراً كبيراً. يشرح عالم الجينات رانغاناتان الموضوع كالتالي:

"أولاً، الطفرات الجينية نادرة الحدوث. ثانياً الطفرات في معظمها ضارة ومهلكة في بعض الأحيان لأنها تغيرات عشوائية ، وأي تغير غير منظم، علاوة على المنظم ، في أي كائن حي راقيبتنحدر به نحو الأسوء ولا ترتقي به إلى الأفضل. فالهزة الأرضية التي قد تصيب أحد الأبنية على سبيل المثال، ستتسبب في تغيير في الإطار العام لها، وهذا بالطبع ما لن يكون تحسيناً في البناء."[21]

لهذا ليس غريباً غياب أي دليل على وجود طفرة كانت السبب في تغيير الشفرة الوراثية نحو الأفضل. على العكس فجميع الطفرات كانت ناكسة . أصبح واضحاً إذاً أن الطفرة التي اعتبرت من تقنيات التطور لا تجلب على الكائن الحي إلا المزيد من الضعف وتجعله عاجزاً. ( من التأثرات الشائعة للطفرة في العصر الحديث مرض السرطان). وطبيعي أن لا تكون تقنية مدمرة من تقنيات "التطور"، كما لا يمكن لـــ "الاصطفاء الطبيعي " أن ينجز شيئاً بنفسه. وهذا يعني أنه لا يوجد تقنيات تطور في الطبيعة. وبانتفاء وجود هذه التقنيات تنتفي عملية التطور.







**إنّ علماء الأحياء الذين هم من أنصار نظرية التطور قد أخذوا يبحثون عن نموذج مفيد للطفرات الأحيائية حيث عرَّضوا الذباب للطفرات الأحيائية منذ بداية القرن، إلا أنه في نهاية تلك المساعي والمجهودات لم يتم الحصول إلا على ذباب مريض، وعليل، وغير تام. ويوجد في الأعلى وعلى اليسار صورة لذبابة فاكهة طبيعية، وفي الأسفل وعلى اليمين توجد ذبابة فاكهة أخرى تعرضت للطفرات الأحيائية وخرجت سيقانها من رأسها، أما في أعلى اليمين فتوجد ذبابة فاكهة قد خرجت أجنحتها بشكل مشوه وذلك بالطبع نتيجة لما تعرضت له من طفرات أحيائية.**

## السجلات الإحاثية:

## لا دليل على وجود أشكال مرحلية

في الحقيقة لا يوجد أي دليل في سجل المستحاثات على أكثر الادعاءات وضوحاً في سيناريو نظرية التطور.

حسب نظرية التطور، فإن كل كائن حي قد نشأ عن كائن قبله، أي أن الكائنات السابقة قد تحولت إلى كائنات أخرى، وكل الأنواع نشأت بهذه الطريقة. وحسب النظرية، فإن هذه التحولات استغرقت ملايين السنين.

وإذا كان هذا الافتراض حقيقي ، فمن الضروري وجود عدد كبير من الأنواع المرحلية التي عاشت في فترة التحول الطويلة. على سبيل المثال لابد من وجود كائن نصفه سمكة ونصفه سلحفاة يحمل صفات السلحفاة بالإضافة إلى صفات الأسماك التي يحملها أصلاً. أو كائنات نصفها طير والنصف الآخر زواحف، أي تحمل بعض صفات الطيور بالإضافة إلى صفات الزواحف التي تحملها أصلاً. وبما أنها في الطور المرحلي، فهي كائنات عاجزة غير مؤهلة، ومعاقة؛ ويطلق التطوريون على هذه الأشكال الخيالية إسم "الأشكال التحولية"

لو كان هناك حيوانات كتلك حقاً، فيجب أن يكون هناك الملايين بل البلايين منها وبشكل متنوع. والأهم من ذلك يجب أن تحمل سجلات المستحاثات بقايا هذه الأحياء الغريبة. يقول داروين في كتابه "أصل

الأنواع":

"إذا كانت نظريتي صحيحة، فلابد من وجود عدداً كبيراً من الأنواع المختلفة التي تصنف ضمن فئة واحدة، وهذا الوجود ستثبته السجلات الإحاثية". [22]

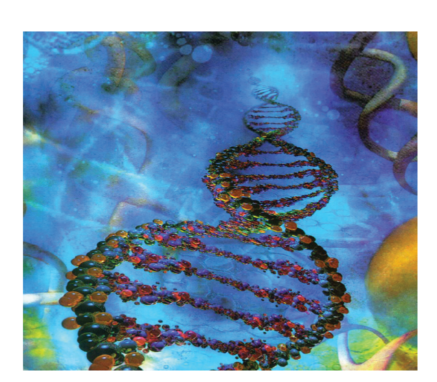
## آمال داروين تتبدد

بالرغم من جميع محاولات التطوريين الجادة في إيجاد مستحاثات تدعم تصوراتهم في وجود مخلوقات تحولية في منتصف القرن العشرين في جميع أنحاء العالم، إلا أنهم لم يجدوا أ ياً منها . لقد أثبتت جميع المستحاث التي اكتشفت أثناء الحفريات الجيولوجية عكس ما قالت به النظرية الداروينية تماماً: لقد نشأت الحياة فجأة وبتشكل تام لا وجود لأي شكل تحولي.

أقر أحد علماء التطور، العالم الإنجليزي ديريك آغر Derek Ager بهذه الحقيقة عندما قال:

النقطة هي أننا عندما قمنا بتقصي السجل الإحاثي بالتفصيل سواء على مستوى الأنواع أو الترتيب الزمني المرة تلو المرة، لم نجد تطور تدريجي أو مرحلة انتقالية، وإنما ظهور مفاجئ لمجموعة من الكائنات على حساب أخرى.[23]

هذا يعني أن السجل الإحاثي يبرهن أن جميع الكائنات الحية قد ظهرت على الأرض بشكل مفاجئ بأشكالها التامة، ودون أي طور تحولي، وهذا عكس الإدعاءالدارويني تماماً وإثبات قوي على حقيقة الخلق. فالتفسير الوحيد لنشوء الكائنات الحية بشكل مفاجئ على سطح الأرض بشكلها الكامل ودون تطور عن أجداد سابقين، إنما يعني أن هذه الأنواع قد خلقت خلقاً. ويقر هذه الحقيقة عالم الأحياء التطوري دوغلائس فيوتويما:



"الخلق والتطور، وبينهما التفسيرات المحتملة عن أصل الكائنات الحية. فإما أن تكون الأنواع قد ظهرت على سطح الأرض بتكوينها الكامل، أو لا تكون. إذا لم يكن الأمر كذلك فهذا يعني أنها قد تطورت عن أنواع وجدت مسبقاً من خلال بعض عمليات التحول. أما إذا كانت قد ظهرت بشكلها الكامل ، فلابد أنها قد خلقت خلقاً.[24]

والمستحاثات تثبت أن الكائنات الحية قد نشأت بشكلها المكتمل على سطح الأرض، وهذا يعني أن "أصل الأنواع" ليس كما يدعي داروين، إنه خلق وليس تطور.

## قصة تطور الإنسان

الموضوع الذي يحاول مؤيدوا نظرية التطور الكلام به دائماً هو موضوع أصل الإنسان. يدعي الداروينيون أن الإنسان الحالي قد تطور عن نوع من أشباه القردة. وخلال هذه العملية التطورية المزعومة، التي يفترض أنها استغرقت من 4-5 ملايين عاماً، ظهرت "أشكال تحولية" تفصل بين الإنسان الحديث وأجداده، كما يزعمون. وحسب هذه الصورة الخيالية البحتة، صنفت هذه الأشكال في أربعة فئات:

1-أوسترالوبيثيكوس

2-هومو هابيليس.

3-هومو أريكتوس

4-هومو سابينس

يطلق التطوريون على الجد الأول للإنسان " أوسترالوبيثيكوس" ويعني "قرد جنوب إفريقيا".والحقيقة هو أن هذا المخلوق ليس إلا نوعا من القرود القديمة المنقرضة. أثبتت الأبحاث الواسعة التي أجراها عالما التشريح ، اللورد سولي زوكرمان والبروفسور تشارلز أوكسنارد، من إنكلترا والولايات المتحدة، على مستحاثات أوسترالوبيثيكوس أن هذه المستحاثات تعود إلى أنواع عادية من القردة التي انقرضت والتي لا تحمل أي شبه مع الإنسان.[25]

والفئة الثانية التي يصنفها التطوريون هي "هومو" وتعني "الإنسان" وحسب نظرية التطور، فإن سلالة الهومو أكثر تطوراً من سلالة أوسترالوبيثيكوس. وهنا اخترع التطوريون خطة مثيرة بتركيبهم لهدة مستحاثات من هذه المخلوقات ووضعها بترتيب معين. إلا أن تلك الخطة خيالية لأنه لم يثبت وجود أي علاقة تطورية بين هذه الفئات المختلفة. يقول أحد أهم المعلقين على نظرية التطور إيرنست ماير في كتابه "من المناظرات الطويلة:

" تعتبر الأحجية التاريخية التي تتكلم عن أصل الحياة أو أصل الهومو سابينس أحجية صعبة حتى أنها تتعارض مع الاكتشافات الأخيرة."[26]

ومن خلال السلسلة التي وضعها التطوريون فإن الفئات الأربع: أوسترالوبيثيكوس، هومو هابيليس، هومو

أريكتوس، هومو سابينيس ناشئة عن بعضها البعض. إلا أن الاكتشافات الأخيرة التي ظهرت على يد علماء المستحاثات البشرية قد أثبتت أن هذه الفئات الأربعأوسترالوبيثيكوس ، هومو هابيليس، هومو أريكتوس، هومو سابينيس قد عاشت في بقاع مختلفة من العالم وفي زمن واحد.[27]

علاوة على هذا، فإن الأجزاء البشرية التي صنفت في فئة "هومو أريكتوس" لم تنقرض حتى وقت قريب جداً، أما النياندرتاليين والهوموسابينيس فقد تعايشوا في زمن واحد وفي منطقة واحدة.[28]

هذا الاكتشاف يدحض الادعاء بأن أحد منهم يمكن أن يكون جداً للآخر. يفسر عالم الأحياء القديمة ستيفن جاي غولد Stephen Jay Gould من جامعة هارفارد النهاية المسدودة التي وصلت إليها نظرية التطور، بالرغم من أنه عالم تطوري:

> ماذا سيكون مصير فكرتنا إذا كان هناك تزامن معيشي لثلاث من فئات الهومو (الإفريقي والأوسترالوبيثيكوس القوي والهومو هابيليس) وثبت أن أحداً منهم لم ينشأ عن الآخر؟ أضف إلى أن أحدا من هؤلاء لم يثبت عليه أي تحول تطوري خلال فترة حياته على سطح الأرض.[29]

نقول باختصار، أن سيناريو التطور البشري الذي ينص على وجود مخلوق نصفه إنسان ونصفه قرد والذي قام على استخدام العديد من الصور الخيالية التي ظهرت في الكتب الدعائية لنظرية التطور، ليست إلا قصة لا أساس لها من الصحة العلمية.

وبالرغم من كون العالم سولي زوكرمان، الأكثر شهرة في المملكة المتحدة، عالماً تطورياً، إلا أنه اعترف في نهاية أبحاثه، التي استغرقت عدة سنوات والتي تناولت بشكل خاص مستحاثات أوسترالوبيثيكوس لمدة 15 عاماً، أنه لا يوجد شجرة بشرية تتفرع عن مخلوقات شبيهة بالقرود.

صنف زوكرمان العلوم ضمن طيف أسماه "طيف العلوم" يتدرج من العلوم التي يعتبرها علمية لينتهي في العلوم التي يعتبرها غير علمية. وحسب طيف زوكرمان، فإن أكثر العلوم "علمية" — أي التي تقوم على بيانات ومعلومات ملموسة– هي الفيزياء والكيمياء، تليهما العلوم البيولوجية وفي الدرجة الأخيرة العلوم الاجتماعية. وفي نهاية الطيف تأتي العلوم "غير العلمية" والتي يحتل مكانها "الإدراك الحسي المفرط" — وهي مفاهيم الحاسة السادسة والتيليباثي (التخاطر عن بعد) — ويليها "التطور البشري". ويشرح لنا زوكر عمله هذا:

> نحن هنا إذاً نتحول من الحقيقة المسجلة موضوعياً إلى تلك المجالات التي يشغلها علم الأحياء الافتراضي، مثل الإدراك الحسي المفرط، أو التفسير التاريخي للمستحاثات الإنسانية، والتي يبدو فيها كل شيء جائز بالنسبة للتطوري، حيث يكون التطوري مستعداً لتصديق العديد من الأمور المتناقضة

في وقت واحد.[30]

لقد انحدرت قصة التطور البشري لتصل إلى مستوى التفسيرات المتحيزة لبعض المستحاثات التي استخرجها بعض الأشخاص الذين تعلقوا بهذه النظرية بشكل أعمى.

## المعادلة الداروينية

إلى جانب كل ما تناولناه إلى الآن من أدلة تقنية ، نود أن نوجز ـــ إن شئتم ـــ وبمثال واضح بحيث يمكن حتى للأطفال أن يفهموه ، كيف أن التطوريين أولو عقيدة خرفاء فاسدة .

تزعم نظرية التطور أن الحياة تشكلت محض صدفة؛ وعليه وطبقاً لهذا الزعم فإن الذرات الجامدة وغير الواعية اجتمعت وشكلت أولاً خلية، ثم جاءت الذرات نفسها بطريقة أو بأخرى بالكائنات الحية والبشر. ولنفكر الآن: إننا حينما نجمع عناصر مثل الكربون والفسفور والأزوت والبوتاسيوم وهي المفردات الأساسية في بنية الكيان الحي، فإنه تتشكل كومة. ومهما مرت كومة الذرات هذه بأي من العمليات، فإنها لا يمكن أن تشكل كائنا حيا واحدًا. ولنجر تجربة في هذا الصدد إذا ما شئتم ، ولنتناول بالبحث والاستقصاء، باسم التطوريين وتحت عنوان "المعادلة الداروينية"، الزعم الذي ينافحون عنه في الأصل، إلا أنهم لا يستطيعون أن يجهروا به:

فليضع التطوريون كميات وفيرة من عناصر مثل الفسفور والأزوت والكربون والأوكسجين والحديد والماغنسيوم وهي العناصر التي تتشكل منها بنية الكائن الحي، داخل أعداد هائلة من البراميل العظيمة. وليضيفوا حتى إلى هذه البراميل ما يرون أنه من الضروري وجوده داخل هذا المزيج من مواد لا توجد حتى في الظروف الطبيعية. وليفعموا هذا المزيج بقدر ما يشاؤون من الأحماض الأمينية، والبروتين (احتمال تشكل الوحدة الواحدة منه تصادفياً بنسبة 10 قوة 950 ). وليمدّوا هذا المزيج بالحرارة والرطوبة بالنسبة التي



يرونها مناسبة، وليخفقوه ما شاؤوا من الأجهزة المتطورة، وليقيّضوا على رأس هذه البراميل صفوة علماء العالم، ولينتظر هؤلاء الخبراء في مكانهم هذا وبشكل مستمر مليارات، بل تريليونات السنين بالتناوب من الأب إلى الابن، ومن جيل إلى جيل، ولتكن لهم مطلق الحرية في أن يستخدموا كافة ما يعتقدون في ضرورة وجوده من الظروف من أجل تشكل الكائن الحي. إنّهم مهما فعلوا، ليس بمقدورهم بالطبع أن يُخرجوا كائنا حيّا من تلك البراميل. ولا يتأتى لهم أن يأتوا بواحدة من الزّرافات أو الأسود أو النحل أو عصافير الكناريا أو البلابل أو الببغاوات أو الخيل أو حيتان يونس أو الورود أو زهور الأوركيد أو الزنابق أو زهور القرنفل أو الموز أو البرتقال أو التمر أو الطماطم أو الشمام أو البطيخ أو التين أو الزيتون أو العنب أو الخوخ أو الطواويس أو طيور الدُّراج أو الفراشات مختلفة الألوان وملايين من الأنواع الحية من مثل هؤلاء. بل ليس بوسعهم أن يأتوا ولو بخلية من هذه الكائنات الحية التي أحصينا عدداً منها، لا بواحدة منها كاملة الخلق.

جملة ما نبغي قوله هو أن الذرات غير الواعية ليس بوسعها أن تجتمع فتشكل خلية حية، ولا تستطيع أن تتخذ قرارًا جديدًا من بعد فتقسم الخلية نصفين، ثم تتخذ قرارات أخرى تباعًا فتأتي بكيان العلماء الذين اخترعوا المجهر الإليكتروني، ممن يراقبون بنية الخلية ذاتها فيما بعد تحت المجهر. إنّ الخلية تدب فيها الحياة فقط بالخلق المعجز لله عز وجل. أما نظرية التطور التي تزعم عكس هذا، فهي سفسطة تتنافى تماما مع العقل والمنطق. وإن إعمال الفكر ولو قليلا في المزاعم التي طرحها التطوريون، ليظهر بجلاء هذه الحقيقة مثلما في النموذج الوارد أعلاه.

## التقنية الموجودة في العين والأذن

أما الموضوع الآخر الذي لم تستطع نظرية التطور أن تأتي له بتفسير جازم، فهو جودة الإدراك الفائقة الموجودة في العين والأذن.

وقبل الولوج إلى الموضوع المتعلق بالعين، نود أن نجيب بإيجاز عن سؤال هو: كيف تبصر العين ؟

إن الأشعة المنبعثة من جسم ما، تسقط بشكل عكسي على شبكية العين، وتقوم الخلايا الموجودة هنالك بتحويل هذه الأشعة إلى إشارات كهربية، تصل إلى نقطة تسمى مركز الإبصار موجودة بالجزء الخلفي للمخ. وهذه الإشارات الكهربية، بعد مجموعة من العمليات يتم التقاطها كصورة في هذا المركز الكائن في المخ. وبعد هذه المعلومة فلنفكر:

إن المخ محجوب عن الضوء، بمعنى أن داخل المخ ظلامًا دامسًا، ولا يتأتى للضوء أن ينفذ إلى حيث

يوجد المخ. والموضع الذي يسمى مركز الإبصار موضع حالك الظلمة ليس الضوء ببالغه أصلا، ولعله مظلم بدرجة لم نصادفها قط. إلا أنكم في هذه الظلمة الحالكة تشاهدون عالما مضيئا متوهجا.

فضلا عن كونه منظرًا على درجة من النقاء والجودة تعجز حتى تقنية القرن الحادي والعشرين ـــ رغم كل الإمكانيات ـــ أن تأتي بمثلها. انظروا مثلا إلى الكتاب الذي بين أيديكم الآن، وانظروا إلى أيديكم التي تمسك الكتاب، ثم ارفعوا رأسكم وانظروا حولكم. أرأيتم منظرًا بهذا النقاء والجودة في أي موضع آخر؟ إن شاشة أكثر أجهزة التلفاز تطورًا والتي تنتجها شركة أجهزة التلفاز الأولى على مستوى العالم، لا يمكن أن تمنحكم صورة بهذا القدر من النقاء. ومنذ مائة عام وآلاف المهندسين يسعون للوصول إلى هذا النقاء، ومن ثم تُشيَّد المصانع والمؤسسات العملاقة، وتُجرى الأبحاث، ويتم تطوير الخطط والتصميمات. ولتنظروا ثانية إلى شاشة التلفاز، وفي اللحظة ذاتها إلى الكتاب الذي بين أيديكم، فسوف ترون أن هناك فرقاً شاسعاً في النقاء والجودة. فضلا أن شاشة التلفاز تبدي لكم صورة ثنائية الأبعاد، في حين أنكم تتابعون مناظر ثلاثية الأبعاد ذات عمق.

ومنذ سنوات طوال يسعى عشرات الآلاف من المهندسين لتصنيع شاشات جهاز تلفاز تعطي صورة ثلاثية الأبعاد، والوصول إلى جودة رؤية العين. نعم لقد أمكنهم تصميم نظام تلفاز ثلاثي الأبعاد، غير أنه ليس في الإمكان رؤيته ثلاثي الأبعاد دون ارتداء النظارة. ومع أن هذه الأبعاد الثلاثة اصطناعية. فالجهة الخلفية تظل عكرة، أما الجهة الأمامية فتبدو وكأنها صورة من ورق. ولا يتشكل أبدا منظر في جودة ونقاء المنظر الذي تراه العين. ويحدث بالطبع أن تضيع الصورة في الكاميرا والتلفاز.

وها هم التطوريون يزعمون أن آلية الإبصار في العين والتي تظهر هذا المنظر الذي يتسم بالجودة والنقاء، إنما تشكلت بمحض المصادفة . والآن إذا ما قال أحد لكم إن التلفاز الموجود في حجرتكم، إنما قد تشكل نتيجة مصادفات، وأن الذرات تجمعت وجاءت بالجهاز الذي يشكل هذه الصورة، ماذا تعتقدون فيه؟! كيف لذرات غير واعية أن تصنع ما لم يتأت لآلاف الأشخاص مجتمعين أن يصنعوه ؟!

إنّ الآلة التي تشكل منظرًا هو أكثر بدائية مما تراه العين، لو أنها لا تتشكل مصادفة، فإنه من الواضح للغاية أن العين والمنظر الذي تراه بدورهما لن يتشكلا محض مصادفة، والحال كذلك بالنسبة للأذن. فالأذن الخارجية تجمع الأصوات المحيطة بواسطة صوان الأذن، وتقوم بتوصيلها إلى الأذن الوسطى، لتقوم هي الأخرى بتقوية الذبذبات الصوتية ونقلها إلى الأذن الداخلية، لتقوم بدورها بتحويل هذه الذبذبات إلى إشارات كهربية، وإرسالها إلى المخ. وعملية السمع أيضا كما هو الشأن في عملية الإبصار تتم في مركز السمع الموجود في المخ.

والوضع الذي في العين يسري كذلك على الأذن. بمعنى أن المخ محجوب كذلك عن الصوت مثلما هو محجوب عن الضوء، فالصوت لا ينفذ، وعليه فإنه مهما بلغت شدة الضجيج خارج المخ، فإن داخله ساكن تمام السكون. ورغم هذا فإن أنقى الأصوات تُلتقط في المخ. ولو أنكم تسمعون

سيمفونيات أوركسترا في مخكم الذي لا ينفِذ إليه الصوت، فإنكم تشعرون بكل صخب أحد الأوساط المزدحمة. وإذا ما قيس مستوى الصوت الذي بداخل المخ باستخدام جهاز حساس في تلك اللحظة، فسيتضح أنه يُطبق عليه السكون التام.

وعلى نحو ما استخدمت التقنية أملا في الحصول على صورة نقية، فإن المساعي نفسها تتواصل منذ عشرات السنين بالنسبة كذلك للصوت. وتُعد أجهزة تسجيل الصوت وأشرطة الكاسيت وكثير من الأجهزة الإليكترونية، والأنظمة الموسيقية التي تلتقط الصوت، بعض ثمار هذه المساعي. ولكن على الرغم من كل التقنيات، وآلاف المهندسين والخبراء العاملين بحقلها، لم يتأت الوصول إلى صوت بنقاء وجودة الصوت الذي تلتقطه الأذن. وتأملوا أجود أشرطة الكاسيت التي تنتجها كبرى شركات الأنظمة الموسيقية، فحينما يسجل الصوت، حتما يضيع شطر منه، أو يحدث تشوش بالطبع ولو قليلا، أو أنه حينما تقومون بتشغيل شريط الكاسيت فإنكم لا بد أن تسمعوا له صريرًا قبل أن تبدأ الموسيقى. في حين أن الأصوات التي من نتاج التقنية الموجودة بالجسم الإنساني تتسم بأقصى درجات النقاء، ولا تشوبها شائبة. ولا تلتقط أذن إنسان أبدًا الصوت بشكل به صرير أو تشويش. وأيا ما كانت طبيعة الصوت فإنها تلتقطه بشكل كامل ونقي. وهذا الوضع لا يزال على ذات الكيفية منذ أن خُلق الإنسان وإلى يومنا هذا. وإلى الآن ليس ثمة جهاز بصري أو صوتي من صنع بني الإنسان يلتقط الصورة والصوت بشكل حساس وناجح مثل العين والأذن.

وفيما عدا هذا كله، فإنه ثمة حقيقة عظيمة للغاية في عملية الإبصار والسمع.

## لمن تعود حاسة الإبصار والسمع داخل المخ ؟

من ذا الذي بداخل المخ يشاهد عالما مضيئا ملونا، ويسمع السيمفونيات وزقزقة العصافير، ويتنسم عبير الورود؟ إن التنبيهات الآتية من عيني الإنسان وأذنيه وأنفه تمضي إلى المخ في صورة إشارة كهربية. وإنكم لتطالعون تفصيلات كثيرة في كتب علم الأحياء والطبيعة والكيمياء الحيوية، بيد أنكم لا يمكن أن تصادفوا في أي موضع قط أهم حقيقة ينطوي عليها هذا الموضوع ألا وهي: من ذا الذي بالمخ يتلقى هذه الأشارات الكهربية ويدركها على أنها صورة وصوت ورائحة وإحساس. إن ثمة حاسة توجد بداخل المخ تلتقط هذا كله دون حاجة إلى عين أو أذن أو أنف، لمن تعود هذه الحاسة. بالطبع لا تعود على ما يشكل المخ من أعصاب وطبقات دهنية وخلايا عصبية. وهكذا ولهذا السبب ليس بمقدور الماديين الداروينيين ممن يظنون أن كل شيء ليس سوى مادة، أن يجيبوا على هذه التساؤلات، لأن

هذه الحاسة إنما هي الروح التي خلقها المولى عز وجل. فهي لا تحتاج إلى عين حتى ترى الصورة، ولا أذن حتى تسمع الصوت. وعلاوة على هذا كله، فهي ليست بحاجة إلى مخ كيما تفكر. إن كل امرئ يطالع هذه الحقيقة العلمية الجلية، عليه أن يفكر في الله عز وجل الذي جمع بمكان حالك الظلمة داخل المخ يقدَّر بعدة سنتيمترات مكعّبة، الكائنات كافة بصورة ثلاثية الأبعاد ذات ألوان وظلال وضياء، ويخشاه ويلوذ به.

## عقيدة مادية

إن ما تناولناه إلى الآن بالبحث والتدقيق ليظهر أن نظرية التطور ما هي إلا زعم يتعارض بوضوح مع الاكتشافات العلمية، ويجافي زعم النظرية ـــ فيما يتعلق بأصل الحياة ـــ المنطق العلمي. فليس لأية آلية تطور قط طرحتها النظرية أي تأثير تطوري. وتكشف الحفريات أن الكائنات الحية لم تمر بمراحل بينية تلك التي تستوجبها النظرية. وفي هذه الحالة يتعين تنحية نظرية التطور جانبا باعتبارها فكرة مجافية للعلم. لا سيما وأن كثيرًا من الأفكار التي ظهرت على مدار التاريخ، مثل فكرة أن الأرض هي مركز الكون، قد حُذفت من أجندة العلم. في حين أن نظرية التطور يُتشبث بها وبإصرار في هذه الأجندة، حتى إنه من الناس من يسعى لإظهار أي انتقاد موجه إلى النظرية وكأنه هجوم على العلم ! لِمَ هذا إذن؟!

إن السبب في هذا الوضع إنما هو تكون عقيدة جازمة لنظرية التطور لا يمكن النكوص عنها بالنسبة إلى بعض الأوساط. وتخلص هذه الأوساط إخلاصاً أعمى للفلسفة المادية، وتتبنى الداروينية كذلك لأنها التفسير المادي الوحيد للطبيعة الذي يمكن الإتيان به.

وأحيانا يعترفون صراحة بهذا، ويعترف ريتشارد لونتين (Richard Lewontin) ـــ عالم الوراثة الشهير بجامعة هارفرد وفي الوقت ذاته تطوري بارز، ـــ بأنه "مادي في المقام الأول، ثم عالم في المقام الذي يليه"، إذ يقول:

"إن لنا إيمانا بالمادية، وهو إيمان استباقي (اعتُنق سلفا، وافترضت صحته). والشيء الذي يدفعنا إلى الإتيان بتفسير مادي للعالم، ليس هو أصول العلم وقواعده، بل على العكس من ذلك فإننا ـــ بسبب من إخلاصنا سلفا للمادية ـــ نختلق أصول ومفاهيم بحثية تأتي بتفسير مادي للعالم. ونظرا إلى كون المادية صحيحة صحة مطلقة، فإننا لا يمكن أن نسمح بدخول تفسير إلهي إلى الساحة".[31]

وتُعد هذه الكلمات اعترافات صريحة بأن الداروينية مولود يحيا في سبيل الإخلاص للفلسفة المادية. وهذا المولود يفترض أنه ما من وجود قط سوى المادة. ولهذا السبب يعتقدون أن المادة الجامدة عديمة الوعي إنما خلقت الحياة. ويذهبون إلى أن ملايين الأنواع الحية المختلفة مثل الطيور والأسماك

والزرافات والنمور والحشرات والأشجار والأزهار وحيتان البال والبشر إنما تشكلت من داخل المادة الجامدة وبالتفاعلات الحادثة داخل المادة ذاتها؛ أي بالمطر الساقط، والبرق الخاطف. أما في حقيقة الأمر فإن هذا يتنافى مع العقل والمنطق على السواء. بيد أن الداروniين يستمرئون المنافحة عن هذا الرأي بُغية "عدم دخول تفسير إلهي إلى الساحة" على حد تعبيرهم.

أما من لا ينظرون إلى أصل الكائنات الحية وفي أذهانهم حكم مادي مسبق، فسوف يدركون هذه الحقيقة الجلية. والكائنات الحية كافة إنما هي من صنع خالق ذي قوة وعلم وعقل معجز. إنه الله الذي خلق الكون كله من العدم، ونظّمه بشكل لا تشوبه شائبة أو قصور، وخلق الكائنات الحية كافة وصوّرها.

## إن نظرية التطور هي أشد السحر تأثيراً في تاريخ العالم

يتعين هنا أن نوضح أن أيما إنسان يُعمِل عقله ومنطقه دون أحكام مسبقة ودون الوقوع تحت تأثير أي أيديولوجية، سيدرك بسهولة ويسر أن نظرية التطور التي تذكرنا بخرافات المجتمعات التي عاشت بمنأى عن العلم والحضارة، ليست سوى زعم يستحيل تصديقه.

وعلى النحو المتقدم تبيانه، فإن من يؤمنون بنظرية التطور يعتقدون أن الأساتذة الذين يفكرون ويعقلون ويخترعون، والطلاب الجامعيين والعلماء مثل إينستين هوبل (***Einstein Hubble***)، والفنانين مثل فرانك سيناترا (***Frank Sinatra***) وتشارلتون هيستون (***Charlton Heston***)، يضاف إليهم كائنات مثل الغزلان وأشجار الليمون وزهور القرنفل، سوف يخرجون مع مرور الزمان من مزيج من كثير من الذرات والجزئيات والمواد غير الحية التي تملأ برميلا عظيما. لا سيما وأن من يؤمنون بهذا الخَرَف هم علماء وأساتذة وأناس على قدر من الثقافة والتعليم. ولهذا السبب فإن استخدام تعبير "أشد السحر تأثيرًا في تاريخ العالم" بالنسبة إلى نظرية التطور سيكون استخدامًا في محله. إذ إنه ليس في تاريخ العالم اعتقاد أو زعم آخر سلب عقول البشر بمثل هذه الدرجة وحرمهم من فرصة التفكير بالعقل والمنطق، وكأنه أسدل ستارًا أمام أعينهم، حال دون أن يروا الحقيقة التي كانت واضحة بجلاء. وإنّ هذا لغفلة وعدم بصيرة لا يستسيغها عقل مثلها كمثل عبادة بعض القبائل الإفريقية للطوطم وعبادة أهل سبأ للشمس وعبادة قوم إبراهيم عليه السلام للأوثان، التي كانوا يصنعونها بأيديهم، وعبادة قوم موسى عليه السلام للعجل الذي صنعوه من ذهب. وهذا الوضع في حقيقته إنما هو حماقة أشار إليها الله تعالى في القرآن الكريم. وينبئنا المولى عز وجل في كثير من آياته بأن من الناس من سيستغلق عليه الفهم ويتردون إلى حال يعجزون فيه عن رؤية الحقائق. ومن بين هذه الآيات قوله تعالى:

**﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ [البقرة: 6–7]**

وقوله أيضا :

**﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [ الأعراف: 179]**

أما في سورة الحِجْر فيخبرنا الله عز وجل بأن أولئك الناس قد سُحروا بحيث أنهم لن يؤمنوا حتى ولو رأوا المعجزات، إذ يقول سبحانه وتعالى:

**﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ  لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: 14–15]**

وإن امتداد هذا السحر بشكل مؤثر على قطاعات عريضة من الناس بهذا القدر، وابتعاد الناس عن الحقائق بهذه الدرجة، وبقاء هذا السحر منذ 150 عاما، لهو وضع مثير للحيرة والدهشة بدرجة لا يمكن شرحها بكلمات، لأنه من الممكن أن يستسيغ العقل اعتقاد شخص أو عدة أشخاص لسيناريوهات مستحيلة ومزاعم حافلة بالخَرَف والهراء والأمور غير المنطقية، إلا أن اعتقاد الكثيرين من البشر في كافة أنحاء العالم بأن الذرات اللاوعية والجامدة قد اجتمعت بقرار فجائي، فأتت بالكون الذي نراه يعمل بنظام لا تشوبه شائبة، ويكشف عن تنظيم غير عادي ونظام متقن غاية الاتقان، وبكوكب الأرض الذي يختص بكافة السمات المناسبة للحياة، وبكائنات حية مزودة بأنظمة معقدة تفوق الحصر، ليس له من تفسير سوى أنه سحر.

كما أن الله عز وجل ينبئنا من خلال تلك الحادثة التي وقعت بين موسى عليه السلام وفرعون، بأن بعض الأشخاص ممن ينافحون عن الفلسفة الإلحادية، يؤثّرون على الناس بما يصنعونه من السحر. فحينما قص موسى عليه السلام نبأ الدين الحق على فرعون، طلب فرعون إلى موسى أن يلتقي بسحرته في موضع يحتشد فيه الناس. وحينما التقى موسى السحرة أمرهم أن يبادروا هم باستعراض مهاراتهم. والآية التي تسرد هذه الحادثة تقول:

**﴿ قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف:116]**

. وعلى نحو ما تبدى تمكن سحرة فرعون بما صنعوه من خدع أن يسحروا الناس جميعا باستثناء

موسى والذين آمنوا به. إلا أن البرهان الذي ألقاه موسى في مواجهة ما ألقاه هؤلاء على حد التعبير الوارد بالقرآن الكريم "تَلَقَّفَ مَا يَأْفِكُونَ"، أي أنّه أبطل تأثيره، يقول تعالى:

**﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 117–119]**

وعلى نحو ما ورد في الآيات، و مع إدراك أن ما فعله هؤلاء الأشخاص الذين سحروا الناس من قبل وأثروا عليهم إنما هو إفك، باؤوا بالذل والضعَّة. وأولئك الذين يؤمنون بمزاعم خرقاء إلى أقصى درجة تحت غلاف من العلم وبتأثير السحر في عصرنا الراهن، وينذرون حياتهم للدفاع عنها، فسوف يسقط شأنهم ويُذلوا ما لم يتخلوا عن هذه المزاعم، وذلك حينما تظهر الحقيقة بجلاء بكامل معانيها، و"يبطل تأثير السحر".

ويشرح مالكوم موجريدج (Malcolm Muggeridge) الذي ظل ينافح عن نظرية التطور حتى ناهز الستين من عمره، وكان فيلسوفاً ملحداً، ولكنه أدرك الحقائق من بعد الوضع الذي ستتردى إليه نظرية التطور في المستقبل القريب قائلا:

"إنني أنا نفسي صرت مقتنعا بأن نظرية التطور ستكون إحدى مواد المزاح الموجودة بكتب تاريخ المستقبل لا سيما في المجالات التي طُبقت فيها. وسيتلقى جيل المستقبل بالدهشة والحيرة اعتناق فرضية متهرئة يكتنفها الغموض بسذاجة لا يصدقها عقل" .[32]

وهذا المستقبل ليس ببعيد، بل على العكس من ذلك، فإن البشر في المستقبل القريب للغاية، سيدركون أن المصادفات ليست إلهاً وسوف يتم الاعتراف بأن نظرية التطور إنما هي أكبر خدعة وأشد أنواع السحر في تاريخ العالم. وسرعان ما بدأ هذا السحر الشديد ينحسر عن الناس في شتى أنحاء الأرض، وبات الكثيرون ممن وقفوا على سر خدعة التطور، يتساءلون بدهشة وحيرة كيف انطلت هذه الخدعة عليهم.


﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾
[ البقرة: ٣٢ ]

1 Michael Howard, The Occult Conspiracy: The Secret History of Mystics, Templars, Masons and Occult Societies, 1.b., London: Rider, 1989, p. 106
2 Gerhard Rempel, "Reform, Liberation And Romanticism In Prussia", http://mars.wnec.edu/ ~grempel/ courses/ germany/ lectures/ 07reform.html
3 Michael Baigent, Richard Leigh, Henry Lincoln. The Messianic Legacy. London: Corgi Books, 1991. p. 199
4 Anthony Smith, İnsan, Yapısı ve Yaşamı, Remzi Kitapevi, Istanbul, 1979, p. 33
5 James Joll, Europe Since 1870: An International History, Penguin Books, Middlesex, 1990, p. 164
6 James Joll, Europe Since 1870: An International History, Penguin Books, Middlesex, 1990, p. 164
7 Janet Biehl and Peter Staudenmaier, "'Ecology' and the Modernization of Fascism in the German Ultra-right", Ecofascism: Lessons from the German Experience, AK Press San Francisco, CA, 1995
8 Daniel Gasman, The Scientific Origins of National Socialism: Social Darwinism in Ernst Haeckel and the German Monist League (New York: American Elsevier; London: Macdonald & Co., 1971), p. 23
9 Daniel Gasman, The Scientific Origins of National Socialism: Social Darwinism in Ernst Haeckel and the German Monist League (New York: American Elsevier; London: Macdonald & Co., 1971), pp. 22-23
10 Janet Biehl and Peter Staudenmaier, "'Ecology' and the Modernization of Fascism in the German Ultra-right", Ecofascism: Lessons from the German Experience, AK Press San Francisco, CA, 1995
11 Michael Baigent, Richard Leigh, Henry Lincoln, The Messianic Legacy, Corgi Books, London, 1991. p. 194
12 Acar Baltas, Zuhal Baltas, Stres ve Basa Çikma Yollari, Remzi Kitabevi, June 1997, p. 162
13. Sidney Fox, Klaus Dose, Molecular Evolution and The Origin of Life, New York: Marcel Dekker, 1977, p. 2
14. Alexander I. Oparin, Origin of Life, (1936) New York, Dover Publications, 1953, p.196
15. "New Evidence on Evolution of Early Atmosphere and Life", Bulletin of the American Meteorological Society, vol. 63, Nov 1982, pp. 1328-1330
16. Stanley Miller, Molecular Evolution of Life: Current Status of the Prebiotic Synthesis of Small Molecules, 1986, p. 7
17. Jeffrey Bada, Earth, Feb 1998, p. 40
18. Leslie E. Orgel, The Origin of Life on Earth, Scientific American, vol. 271, Oct 1994, p. 78
19. Charles Darwin, The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition, Harvard University Press, 1964, p. 189
20. Charles Darwin, The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition, Harvard University Press, 1964, p. 184
21. B. G. Ranganathan, Origins?, Pennsylvania: The Banner Of Truth Trust, 1988
22. Charles Darwin, The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition, Harvard University Press, 1964, p. 179
23. Derek A. Ager, "The Nature of the Fossil Record", Proceedings of the British Geological Association, vol. 87, 1976, p. 133
24. Douglas J. Futuyma, Science on Trial, New York: Pantheon Books, 1983, p. 197
25. Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, New York: Toplinger Publications, 1970, pp. 75-94; Charles E. Oxnard, "The Place of Australopithecines in Human Evolution: Grounds for Doubt", Nature, vol. 258, p. 389
26. J. Rennie, "Darwin's Current Bulldog: Ernst Mayr", Scientific American, Dec 1992
27. Alan Walker, Science, vol. 207, 1980, p. 1103; A. J. Kelso, Physical Antropology, 1. ed, New York: J. B. Lipincott Co., 1970, p. 221; M. D. Leakey, Olduvai Gorge, vol. 3, Cambridge: Cambridge University Press, 1971, p. 272
28. Time, Nov 1996
29. S. J. Gould, Natural History, vol. 85, 1976, p. 30
30. Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, New York: Toplinger Publications, 1970, p. 19
31. Richard Lewontin, "The Demon-Haunted World", The New York Review of Books, 9 Jan 1997, p. 28
32. Malcolm Muggeridge, The End of Christendom, Grand Rapids: Eerdmans, 1980, p. 43